الإنساني 50

المهاجرون السريّون

مذنبون أم ضحايا؟

(ملف العدد)

عن الوحدة والتنوع: أن نبتهج باختلافاتنا

تصدر كل ثلاثة شهور عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر

ICRC

غير مخصصة للبيع

العدد الخمسون

خريف 2010

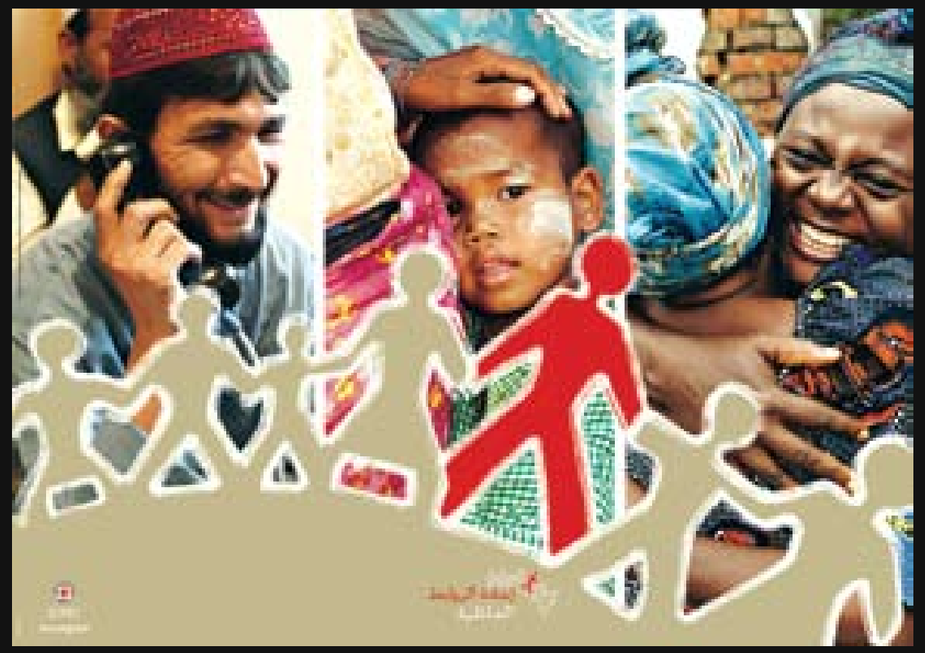

بعيدون عن النسيان

على البعد، تبقى روائح أحبائنا عالقة في أرواحنا، وتبقى ملامحهم معلقة في صحونا ومنامنا.

والذين فقدوا أحباءهم في النزاعات والأزمات، ليس بإمكانهم أن يتحرروا من جحيم الذاكرة، فيبقى من فقدوهم بعيدين، أبدا، عن النسيان.

برنامج "إعادة الروابط العائلية" في اللجنة الدولية، يزرع الأمل في نفوس هؤلاء، ويساعدهم على أن يحولوا أملهم إلى حقيقة، بالسعي لإعادة أحبائهم إليهم.

كاريكاتور

الرسم: **صلاح جاهين**، مصر، (1930–1986)، بمناسبة الذكرى الثمانين لميلاده

– تبادلنى ؟ ...

تدفق المهاجرين: على مفترق التقاء الثقافات

في عالم تفاعلي، تتداخل فيه المصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، يعيش الناس في حالة اختلاط لم يسبق لها مثيل، قد تكون مصدرا للنزاع، كما قد تنتج عنها ثروة ثقافية فريدة. وقد ذهبت مجلة «الإنساني» للقاء نساء ورجال وضعوا العمل الإنساني في صدارة أولوياتهم جاعلين منه خيارا حياتيا.

ويفسح هذا العدد المجال للتعرف على عادات وتقاليد الشعوب المغاربية، ويروي لنا قصص بعض المهاجرين الذين قادتهم النزاعات المسلحة أو دفعهم البؤس إلى البحث عن آفاق حياة جديدة. كما يقدم بعض الأدلة التاريخية المؤثرة التي تكشف عن جوانب إنسانية وحقائق حول العلاقات التي تربط العالم العربي بأوروبا.

سنرى أشخاصا من آفاق مختلفة على صفحات هذا العدد، جمعتهم مدرسة الحياة لتعلمهم كيفية مواجهة المصاعب التي يمرون بها على اختلافها: هذه ربة أسرة من الأمازيغ تسعى لتعليم الأجيال القادمة الثقافة «الأمازيغية»، في محاولة للحفاظ عليها من الاندثار؛ وهذا لاجئ أفريقي عبر الحدود في رحلته للبحث عن زوجته وبناته، إلى أن نجح برنامج «لم شمل الأسر» في اللجنة الدولية في مساعدته على العثور عليهن؛ وتلك شابة فرنسية تساعد مهاجرا غير شرعي في أوروبا إلى أن يحصل على حقوقه القانونية؛ وأخرى مصرية تقوم بحملة توعية للحث على مكافحة سرطان الثدي من خلال تسلق جبل كليمنجارو. ونلتقي طبيبا جزائريا يفتح لنا ملف ذكرياته ويروي زيارات اللجنة الدولية له في سجنه أثناء حرب الجزائر؛ ونلقي الضوء على أطفال من هايتي، أبى الزلزال، الذي ضرب بلادهم، أن يذهب من حيث أتى، دون أن يترك آثاره المدمرة على أجسادهم النحيلة إلى الأبد.

هذه دعوة مفتوحة للسفر معنا على درب الشجاعة والأمل من خلال مواضيع تتناول جميعها هموم الإنسانية بطريقة واقعية، وتتطرق حتى إلى القضايا التي يثيرها تدفق المهاجرين في عالم يعتمد سكانه بعضهم على بعض. فعلى الرغم من التقدم التكنولوجي، بات التواصل والتفاهم أمرا صعبا. ومن بين المقالات، تقرؤون في هذا العدد مقالة حول المخاطر التي تنجم عن تطوير أسلحة الفضاء الإلكتروني، والتي يمكن أن تكشف فعليا عن جنوح نحو التجرد من الإنسانية أثناء النزاعات. تعطي المجلة أيضا الكلمة للفاعلين في العمل الإنساني ليدلوا بشهاداتهم ويتحدثوا عن أهمية احترام حقوق وواجبات كل فرد في حال نشوب النزاع، وهو استمرار لما نقدمه لكم منذ سنوات، بفضل إسهاماتكم أنتم أيضا من شهادات وقصص واقعية وما نتقاسمه معا من خبرات وأفكار.

مهما تكن الأوضاع معقدة، أو الجرم كبيرا، لا يوجد أي مبرر للمساس بالثقافات أو اللغات أو الأعراف السائدة، فالتنوع هو طريق إلى إثراء الثقافة الإنسانية الواحدة المتعددة، وهذا ما يعزز فكرة احترام الآخر والحفاظ على الكرامة الإنسانية.

«الإنساني»

الإنساني

تصدر كل ثلاثة شهور عن
اللجنة الدولية للصليب الأحمر

رئيس التحرير **هشام حسن**
مديرا التحرير **زينب غصن**
ياسر الزيات
المستشار القانوني **د. عامر الزمالي**
مستشار التحرير **محمد بن أحمد**

المراسلات : 33 شارع 106 حدائق المعادي، القاهرة 11431، مصر
هاتف : 25281540/25281541 فاكس : 25281566
البريد الإلكتروني: cai_csc@icrc.org
الموقع الإلكتروني: www.icrc.org/ara

الآراء الواردة بهذه المطبوعة لا تعبر إلا عن وجهة نظر أصحابها

الإشراف الفني **أحمد اللباد**

ICRC

اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمة مستقلة محايدة، أنشئت عام 1863. مهمتها إنسانية بحتة، تتمثل في حماية أرواح ضحايا الحرب وكرامتهم وتقديم المساعدة لهم. تقوم اللجنة بتوجيه وتنسيق أنشطة الإغاثة التي تنفذها الحركة الدولية للصليب والهلال الأحمر. وتعمل على ترويج وتدعيم القانون والمبادئ الإنسانية العالمية.

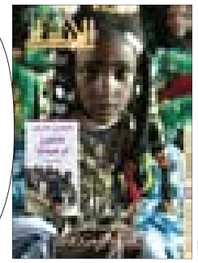

AFP

فتاة من إحدى قبائل الطوارق ترتدي زيًّا تقليديًّا في مهرجان أُقيم جنوبي غرب ليبيا.

50

خريف 2010

هل من حماية لضحايا الحروب الإلكترونية؟ ..... زينب غصن 05

الملف: المهاجرون السرّيون: مذنبون أم ضحايا 09

الهجرة السرية: 4 صور للمهاجر والوطن والمهربين وأرض الأحلام مهدي مبروك 10

طالبة القانون و«المهاجر السرّي» ..... فردريك جولي 13

من بحر الهجرة السرّية إلى بحر الأدب ..... محمد طرنيش 14

الهلال الأحمر الليبي: جهود لتخفيف معاناة المهاجرين ..... محمد البنوني 15

الحقوق القانونية للمهاجرين سرًّا ..... د. أسامة بدير وسامي محمود 16

حكاية دمعة هاربة بين 4 بلدان ..... محمد سلطان 18

بيار غايار: ذكريات العمل الإنساني في حرب الجزائر ... حاوره: محمد بن أحمد 19

د. محمد سعيدان: التصوف في مواجهة الاحتلال حاوره: مولاي سيد سعيد بن تونس 22

ساحل العاج: وضع إنساني متأزم لآلاف النازحين 24

هايتي: أطفال مصابون بإعاقة يستعيدون الأمل في الحياة ..... أولغا ميتشيفا 26

الإنسانية في الحرب: الكاميرا على خط المواجهة 28

د. بكاري سامبه: الإسلام الأفريقي كمثال لروح التسامح حاوره: مام إبراهيمة تونكارا 33

عن الوحدة والتنوع: أن نبتهج باختلافاتنا ..... ياسر الزيّات 35

نساء الطوارق .. مدرسة لتعليم روح الصحراء ..... فتيحة الشرع 37

إحياء الأمازيغية في المغرب ..... جامع كلحسن 40

«مغرب الكتب»: صالون أدبي بألوان المتوسط في باريس دافيد-بيار ماركيه 43

كيف نجعل الحروب أكثر إنسانية ..... د. إقبال الغربي 44

خطط الحرب «الخلدونية» .. وأسباب النصر والهزيمة ..... عادل الأحمر 47

رحلة امرأة إلى القمة لمكافحة سرطان الثدي ..... عبير سليمان 50

بلا رتوش: **طفولة** ..... ناجي الشناوي 52

من شعر الأمل والتحدي ..... طاغور 54

أركان العالم 55

AFP

في زمن تنتقل فيه المعارك إلى العالم الافتراضي

هل من حماية لضحايا الحروب الإلكترونية؟

أدى الارتباط الوثيق والمتزايد اليوم بين البشر والتكنولوجيا إلى نشوء ساحة جديدة للصراع والقتال لم تكن موجودة في الماضي، ألا وهي الساحة الافتراضية. فهل يمكن أن نرى في وقت قريب ضحايا يقعون نتيجة هجمة تمت عبر شبكة الإنترنت؟

هل من حماية لضحايا الحروب الإلكترونية؟

زينب غصن

... **ساهم** التطور العلمي والتكنولوجي الذي شهده العالم خلال القرن العشرين في إحداث طفرة غير مسبوقة جعلت المجتمعات حول العالم أكثر ارتباطا من أي وقت مضى بالتكنولوجيا ووسائلها. وإذا كان هذا الارتباط قد أدى إلى بروز أشكال جديدة من التواصل والتقارب بين أشخاص متباعدين جغرافيا، إلا أنه أدى أيضا، إلى جعل الحياة اليومية للكثيرين مرتبطة بشكل وثيق بهذه التكنولوجيا بل وخاضعة لقوانينها. فالفضاء الالكتروني أصبح ساحة تواصل لكنه أيضا ساحة صراع بين البشر. وارتباط الكثير من مرافقنا الحياتية كمحطات الكهرباء والمياه والنقل والاتصالات والمصارف، كما أعمالنا، بالعالم الرقمي، جعل من هذا العالم الافتراضي مكانا يمكن أن تخاض فيه أيضا الحروب والصراعات. ففي المستقبل القريب، قد تكون هجمة منسقة على شبكة الانترنت سببا في تدمير واسع النطاق يطال مجتمعا مرتبطا بشكل وثيق بشبكات المعلوماتية، ما قد يؤدي إلى ضحايا وتدمير للمنشآت تماما كالذي تسببه الأسلحة التقليدية.

ولعل التنبه لهذه الحقيقة على المستوى الشعبي بدأ مع اقترابنا من العام 2000 وما قيل يومها عن إمكانية أن يشهد العالم، لاسيما الدول المتقدمة، خللا في أجهزة الكومبيوتر وفوضى في بعض المرافق العامة مع انتقال الروزنامة من العام 1999 إلى 2000. شيء من ذلك لم يحدث، لكن الوعي تزايد حول مدى ارتباط حياتنا بالتكنولوجيا، وهو أمر تنبهت إليه الحكومات لاسيما في الدول الكبرى، وإلى الخطر المحدق بها قبل ذلك التاريخ، بل وعملت على إنشاء وحدات خاصة لحماية الشبكات الالكترونية والبنى التحتية الحساسة من أية هجمات قد تعيق عملها أو تدمرها.

أشكال الحرب الرقمية وجنودها

حتى الآن كانت الهجمات على شبكة الانترنت التي تبرز تغطيتها في وسائل الإعلام تتمثل في اعتداءات على مواقع إلكترونية معينة بهدف تدميرها أو شلّها لفترة معينة. وتتنوع أسباب هذه الهجمات بين السياسي والاقتصادي، وأحيانا الديني، وغيرها من الأسباب.

إلا أن نوعا جديدا من الحروب بدأ الباحثون والمراقبون، كما القانونيون والمتخصصون في مجال الجريمة الالكترونية، يتنبهون له مؤخرا، وهو المتمثل بما يعرف بالحرب الرقمية أو الإلكترونية Cyberwar. وهذا التعبير يغطي جزءا صغيرا من كل أنواع الهجمات التي يمكن أن تشهدها الشبكة العنكبوتية، ويرتبط بشكل كبير بالجهة التي تقوم به، كما بالأهداف التي يبتغيها.

التعريف الذي تعتمده كليات الحرب الأميركية للحرب الرقمية، يجعلها جزءا من الحرب المعلوماتية فيقول بأنها "الإجراءات التي يتم اتخاذها للتأثير بشكل سلبي على المعلومات ونظم المعلومات، وفي الوقت نفسه الدفاع عن هذه المعلومات والنظم التي تحتويها". وبحسب هذا التعريف، فإن الحرب الرقمية تتضمن "أنشطة مثل أمن العمليات، والعمليات النفسية، والخداع العسكري، الهجمات الفيزيائية، والهجمات على شبكات الكمبيوتر. وهناك الكثير من الطرق التي يمكن من خلالها تنفيذ الهجمات الرقمية، منها الهجمات المباشرة من خلال التدمير الفيزيائي لأجهزة الخصم، أو نقاط الاتصالات الهامة ضمن شبكاته، وذلك باستخدام القوة العسكرية المباشرة. وهنالك أيضا سرقة المعلومات من أجهزة الخصم، مما يمكن الجهات الصديقة من اتخاذ قرارات أفضل في المعركة، إضافة إلى تخريب قواعد بيانات الخصم والتلاعب بها، لجعل الخصم يخطئ في اتخاذ القرارات. وبالطبع، هناك استخدام الفيروسات وأساليب رقمية، مثل هجمات الحرمان من الخدمات لإخضاع مواقع الخصم، مما يؤدي إلى التقليل من مقدرة الخصم على الاتصال، وإبطاء قدرته على اتخاذ القرار".

وتتنوع أشكال الهجمات التي تشهدها شبكة الانترنت والشبكات أو المواقع المرتبطة بها. ويمكن أن تتدرج من مجرد هجوم على موقع إلكتروني واحد لتخريبه لأسباب فردية، ما يبقي الضرر محصورا في الزمان والمكان، وصولا إلى الهجوم على شبكات حيوية لدولة ما بهدف إحداث تدمير طويل الأجل، ما ينقل معركة ما دائرة على أرض الواقع إلى الفضاء الإلكتروني. وتستخدم في هذه الهجمات وسائل مختلفة لعل أكثرها انتشارا هي برامج التجسس المعروفة باسم "حصان طروادة" لدخول أجهزة الغير والاستيلاء على المعلومات التي تحويها أو استخدام برامج فيروسية يمكنها تخريب الأجهزة التي تدخلها.

ولعل اختلاف الأسباب وراء الهجمات، كما اختلاف الجهات التي تقوم بها، محدد أساسي لتسميتها وتصنيفها كحرب رقمية أم لا. فهناك درجات من "المحاربين"، ومن الهجمات، على الانترنت:

1- الهاكرز: غالبا ما يهاجمون موقعا ما لأسباب خاصة أو لارتباطهم بقضية معينة ينشطون فيها. وكثيرا ما تكون تأثيراتهم محصورة في المكان والزمان.

2- التجسس الالكتروني والجريمة الالكترونية: تستهدف بشكل أساسي الشركات والحكومات، وأحيانا الأفراد، وتكون أهدافها جرمية بالدرجة الأولى، كسرقة معلومات أو أموال، عن طريق سرقة أرقام بطاقات ائتمانية وحسابات مصرفية، أو حتى التجسس على مؤسسات معينة، وسرقة معلومات ذات قيمة اقتصادية، وهي أمور قد تقوم بها حكومات أو مؤسسات أو حتى أفراد. وتلاحق هذه الأعمال عادة باعتبارها أعمالا جرمية بحسب القوانين الداخلية للدول.

3- الإرهاب الإلكتروني: هو استخدام التقنيات الرقمية لإخافة وإخضاع الآخرين، بما يؤدي لأضرار جسدية أو مادية جسيمة. ومثال على ذلك أن يدخل شخص ما إلى شبكة خدمات عامة معينة فيغير في معطياتها، ما يؤدي إلى التأثير على عمل هذا المرفق، أو على حياة أشخاص مرتبطين به. فقد أصبح الاعتماد على شبكات المعلومات، وخصوصا في الدول المتقدمة، من الوسائل المهمة لإدارة نظم الطاقة الكهربائية مثلا. ويمكن لهجمات على مثل هذا النوع من شبكات المعلومات أن تؤدي إلى نتائج خطيرة وحقيقية، خصوصا في ظل اعتماد الإنسان المعاصر بشكل كبير على الطاقة.

4- الحرب الرقمية: كما في كل حرب، تستهدف الهجمات أهدافا تابعة لدولة العدو، ومرتبطة بشبكات المعلومات. وبالتالي ينبغي أن يقوم بهذا الهجوم دولة ما، أو جهة رسمية في دولة ما، أو حتى أفراد مرتبطون بالحكومات يوجهون هجمتهم نحو أهداف تابعة لدولة العدو. وقد تكون هذه الأهداف ...

AFP

AFP

يمكن لهجمات إلكترونية على نظم الطاقة الكهربائية أن تؤدي إلى نتائج خطيرة

عسكرية أو سياسية أو اقتصادية. والهجمات الرقمية على أهداف عسكرية لا يعلن عنها عادة، وقد تكون صعبة الحدوث لعدة أسباب، منها الحرص الشديد لدى الجهات العسكرية عادة على حماية معطياتها، كما أن غالبية المعلومات العسكرية تكون عادة معزولة عن العالم الخارجي، ولا يتم وصلها به بأي شكل من الأشكال. في المقابل أصبح الاعتماد على شبكات الكمبيوتر شبه مطلق في عالم المال والأعمال، مما يجعل هذه الشبكات هدفا مغريا، لأن تخريبا بسيطا لها يمكن أن يؤدي إلى نتائج مؤذية جدا.

AFP

السمة الأساسية التي تميز أي هجوم على الإنترنت هي عدم الكشف عن هوية الفاعل

هل يمكن وضع قيود قانونية على الحروب الرقمية؟

كثيرا ما يتم توصيف الحروب الرقمية على أنها "حروب نظيفة"، لأنها لا تؤدي إلى إراقة الدماء بشكل مباشر. غير أن هذا التوصيف قد لا يكون دقيقا إذا ما نظرنا بتمعن إلى احتمالات الأذى التي يمكن لحرب رقمية أن تسببها لدولة ما وشعبها، وعلى المدى الطويل.

ويناقش الكثير من الخبراء القانونيين والدبلوماسيين والقادة العسكريين في جميع أنحاء العالم اليوم كيفية توسيع قانون الحرب إلى الفضاء الإلكتروني، وما إذا كان من الممكن تطبيق المعاهدات والاتفاقيات القائمة على هذه الساحة الجديدة من ساحات الحروب.

ولعل النقطة الأهم التي يشدد عليها الخبراء اليوم، في ما يتعلق بهذا النوع من الحروب وآليات ضبطها، هي أن القانون الدولي غير واضح في ما يخص كيفية استخدام الدول للسلاح الرقمي خلال أي نزاع، كما يصعب على من يطلق حربا من هذا النوع أن يفرق بشكل واضح بين أهداف مدنية وأهداف عسكرية، وهي نقطة أساسية يقوم عليها قانون الحرب والمعاهدات الدولية، بالإضافة إلى مبدأ التناسب بين الفعل ورد الفعل. فالاستخدام الواسع لبرامج تشغيل متشابهة من قبل العسكريين والمدنيين قد يجعل أي هجوم على هدف عسكري ينتقل بشكل أو بآخر إلى شبكات مدنية فيؤذيها. كما أن قانون الحرب التقليدية لا يسمح مثلا بأن تستخدم قذيفة مدفعية لقتل إنسان بحسب مبدأ التناسب وهو ما قد يبدو غامضا عند محاولة تقييم الهجمات الحربية على شبكة الانترنت وآليات الرد عليها.

إلى ذلك، فإن السمة الأساسية التي تميز أي هجوم على شبكة الانترنت، عادة، هي عدم الكشف عن هوية من يقوم به، أو مصدر الدولة التي انطلق منها، إلا في حالات قليلة. فالقانون الدولي يسمح لدولة ما بالرد على أي هجوم تقوم به دولة أخرى عليها. وبالتالي فإن أي اعتداء عبر شبكة الانترنت يمكن اعتباره غير قانوني ما لم يكن ردا دفاعيا على اعتداء سابق. ولكن في حال حصول هجوم عبر الشبكة قد يكون من الصعب أحيانا إثبات مسؤولية جهة ما عنه. كذلك قد يكون من الصعب معرفة ما إذا كان هجوم ما قد تم من قبل طرف رسمي أو من قبل فرد لا علاقة له بالحكومة. وفي كل الحالات فإن تقدير خطورة أي هجوم على الشبكة المعلوماتية يكون فيه الكثير من الشخصانية. فهجوم على شبكة في دولة ما، قد تعتبره هذه الدولة إعلانا للحرب من قبل دولة أخرى، يستدعي ردا عسكريا، في حين قد تكتفي دولة أخرى باعتباره جزءا من أزمة سياسية وتحل تداعياته بالطرق الدبلوماسية.

كل هذه المعطيات تجعل إمكانية ضبط الوضع القانوني للحروب الرقمية أمرا يحتاج للكثير من النقاش من قبل الأطراف المعنية، أي الدول، قبل الوصول إلى وضع اتفاقيات تحكم الصراع في الفضاء الالكتروني.

قد لا نكون في مواجهة خطر عسكري داهم كخطر السلاح النووي أو الكيميائي يستدعي تحركا دوليا سريعا لوضع اتفاقيات تحكم استخدامه. وقد يبدو الكلام عن السلاح الرقمي ضربا من الخيال وبعيدا عن واقع وأولوية الكثيرين، لاسيما في دول العالم الثالث، التي لم تصل بعد إلى حالة من الارتباط الوثيق بشبكات المعلومات كحال الدول المتقدمة، إلا أن التسارع المطرد في التطورات على مستوى تقنيات الاتصال سيضع قريبا السلاح الرقمي على خارطة أولويات الدول، لجهة البحث عن سبل لسنّ قوانين تحكمه وتحدد أخلاقيات استخدامه ■

AFP

الملفّ

المهاجرون السريون:

مذنبون أم ضحايا؟!

شباب يغامرون بكل شيء، بأوطانهم وأرواحهم وأسرهم، ويلقون بأنفسهم في البحر، حالمين بجنة على الضفة الأخرى، قد يصلون إليها ليجدوا جحيما من نوع آخر، وقد لا يصلون، فيصيرون جثثا مدفونة في المياه. ويشكل أبناء القارة الإفريقية نسبة كبيرة ممن يرون في الضفة الشمالية سبيلا لحياة أفضل.

البعض يعتبر أن المهاجرين السريين أو «غير النظاميين» مجرمون وخارجون على القوانين، فيما يراهم البعض الآخر ضحايا يحتاجون إلى دعم ومساندة لنيل حقوقهم، ويسميهم آخرون «مهاجرين غير شرعيين»، فيما يرى فريق رابع في هذه التسمية جانبا غير أخلاقي ينحو نحو إدانة «الضحية»، بغض النظر عن الظروف التي دفعت المهاجر إلى سلوك هذه الطريق في الهجرة، ويفضل تسميتهم «مهاجرين غير نظاميين».

ما هي دوافع هؤلاء المهاجرين؟ ما هي مبرراتهم؟ ما الذي ينتظرهم على الضفة الأخرى؟ هل لهم حقوق قانونية؟ وهل يمكن مساعدتهم؟ هذا الملف يتناول هذه القضية من جوانبها المتعددة.

AFP

الهجرة السرية:
4 صور للمهاجر والوطن والمهربين وأرض الأحلام

بماذا يفكر المهاجر بشكل سرّي عندما يقرر أن يترك وطنه ليلقي بنفسه في قارب صغير تتقاذفه الأمواج؟ وأي صورة يرسمها عن نفسه وعن وطنه وعن البلد الذي يحلم بالوصول إليه؟ وما الذي يجعله يقامر بحياته ويواجه احتمال الموت غرقا؟ هل يعتقد أن ما تركه خلفه أسوأ من الموت؟

مهدي مبروك*

منذ بداية التسعينيات، اتخذت ظاهرة الهجرة السرية شكلا جديدا في بلدان المغرب العربي، يتمثل في الإبحار خلسة، وهو ما يعرف في هذه البلدان بـ"الحَرقة". وكان ذلك رد فعل مزدوجا على السياسات المتشددة التي اتبعتها دول الشمال تجاه المهاجرين، ومن ثم دول المغرب العربي. ويرتبط العامل الثاني باتساع رقعة التهميش الاجتماعي والاقتصادي في دول جنوب المتوسط التي مست شرائح الشباب بشكل خاص. ونكتفي، هنا، بتناول ثقافة الهجرة السرية وتنظيمها في تونس على وجه الخصوص.

الصور النمطية والأحكام المسبقة

تشكل الصور النمطية والأحكام المسبقة جزءا من التمثلات، وهي إحدى مكونات الثقافة اليومية للمجموعات المرشحة للهجرة، إذ يتم إنتاجها في سياقات اجتماعية معقدة عادة ما تتسم بالنزاعات الضمنية أو السافرة بين مختلف المجموعات الاجتماعية. ويمكن إجمالا تصنيف أرشيف هذه الصور في ثلاث سجلات/ دفاتر.

1
صور أوروبا:

وهي جملة الصور والتمثلات التي ينتجها "الحارقون"/ المهاجرون، ولم نهتم بفحص مدى صحتها أو صوابها، فهذا شأن لا يعني علماء الاجتماع أصلا. فصورة أوروبا ليست واحدة بل متعددة. إنها أوروبا/ الأمل تارة، وأوروبا/ الكنز تارة أخرى، وأوروبا/ الحرية تارة ثالثة. يسقط الأفراد والمجموعات طموحاتهم وخيباتهم وأحلامهم وأمانيهم على تلك القارة، فيعيدون رسمها بألوان وخامات منسوجة مما حُرموا منه في أوطانهم. ويعلم الناس أن في تلك الصور الكثير من المبالغة، وأحيانا الاختلاق الوهمي أصلا، ولكن ما يثبتهم على تلك المواقف هو مقارنتهم بين صورة الـ"هنا" وصورة الـ "هناك".

AFP

2
صورة المهاجر عن نفسه:

هي صورة معقدة أيضا ومتعددة، تتغير ويجري تعديلها بمقتضى المتغيرات السابقة، ولكنها صورة دائمة الشكل، على الرغم من كونها وقتية ومتذبذبة. وهذه الصورة تظل متأرجحة بين نقيضين:

– إحساس بالتفاهة والاحتقار والوضاعة الناجمة عن مقارنات محبطة لا تؤدي في النهاية إلا إلى تقزيم الذات واستصغارها.

– إحساس بالعظمة والتضخم الناجمين عن تعظيم الكفاءات والذكاء الاجتماعي المكتسب، ناهيك عن القدرات الاستثنائية التي يملكونها (خصال، موارد). فالمهاجر/ الحارق متيقن من أن إقدامه على "الحرقة"، على خلاف من يرفض ذلك، يمنحه "نقاطا حاسمة" تعيد رسم موقعه في سلم المكانة والوجاهة الاجتماعية.

3
صورة البلاد:

من خلال أبحاث، أنجزناها ونشرنا بعضها، تبدو صورة البلاد قاتمة.

ويبدو وعي المهاجرين/ الحارقين عاجزا عن شد الإحباط واليأس وهيكلته ليصبح خطابا واعيا. فوراء "الفيضان العاطفي" يكمن تبرم ما، يجعلنا نرى في الهجرة السرية شكلا من أشكال "ثقافة الهروب". يرى المهاجرون من خلال أمانيهم، التي أوردناها، كأن البلاد لم تعد بلادهم. وبذلك تصبح الهجرة أشبه بطرد وتهجير "غير مباشرين".

4
الشبكات والتنظيم

استنادا إلى البحث الميداني، يمكن أن نميز أربعة أنواع من الشبكات العاملة في مجال الهجرة السرية:

– التنظيم الذاتي: يقوم هذا التنظيم على مبادرات فردية بحتة، إذ يعمد الشبان بشكل شخصي إلى تنظيم المحاولة، فيتولى المرشح شخصيا، وبدون الاستعانة بأي طرف آخر، تنظيم كافة مراحل الهجرة/ الرحلة، ويقر مستلزماتها الفنية والمالية كافة. يتميز هؤلاء الشبان بخصال ذاتية عالية: الشجاعة، المغامرة، وكفاءات عالية في المراقبة والحذر والفطنة والجرأة.

– المجموعات: تتشكل هذه الشبكات في الأحياء المهمشة في الوسط الحضري أو في الأرياف والبوادي المتاخمة للمدن والقرى الساحلية. تجمعهم، عادة، علاقات شخصية متينة تسبق سعيهم إلى الهجرة، وتشكل خلفية وقاعدة للمشاركة.. وينتظم هؤلاء في مجموعات صغيرة لا يتجاوز عددها ثمانية أفراد، ويكون لقيم المودة وتضامن القربى والجيرة دور حاسم في ذلك.

ويتسم تقسيم المهام في هذه المجموعات بكونه ضعيفا وغير مهيكل. ويأخذ التمويل في الحسبان المقدرة الذاتية والمواهب والخدمات.

ويلتف أفراد المجموعة حول نواة/ قائد ينجز بمفرده، تقريبا، معظم الأعمال الصعبة. يختفي منطق الحساب والقسمة في هذه الشبكة. وهم يفضلون، عادة، الإبحار بمراكب الصيد الصغرى المخصصة لنقل أجهزة الإنارة، والتي تتسع لخمسة بحارة، وتجهز عادة بمحركات ذات قدرة متوسطة. أما معارفهم وخبراتهم فإنها تظل تتراكم بمفعول الإخفاق.

–الشبكات المتوسطة: هي شبكات شبه محترفة تعتبر الترحيل نشاطا يدرّ مقابلا، وترى في •••

المهاجر على يقين بأن هجرته تعيد رسم موقعه في سلم المكانة الاجتماعية

يرى المهاجرون كأن البلاد لم تعد بلادهم.. وبذلك تصبح الهجرة أشبه بتهجير غير مباشر

AFP

* أستاذ جامعي تونسي

ICRC

البحرية توفر للراغبين في صنع المراكب كافة المستلزمات. وفي السنوات الأخيرة، بدأت الشبكات تجمع الوظائف قدر الإمكان، أو تتخلى عنها لصالح المرشحين للهجرة ذاتهم، أو لمجموعات أخرى في شكل «مناولة». لذلك تبدو هذه الشبكات حاليا أكثر تحفظا على وظيفتي: نقل المسافرين أو إيوائهم، تجنبا للمضايقات الأمنية ومخاطرها. ولذلك يتولى الشبان الراغبون في الهجرة تدبر أمر انتقالهم أو سكناهم. وينتمي معظم العاملين في هذه الشبكات، خصوصا من يحتل المواقع المهمة فيها، إلى شرائح اجتماعية وسطى، أما الذين يتولون مهام «ثانوية» فهم عادة ما يكونون قادمين من أوساط شعبية، مهمشة ورثة.

–الشبكات الدولية: ظهر هذا النوع من الشبكات، في السنوات الأخيرة، خصوصا بعد صدور القوانين التي أشرنا إليها (2004)، وهي تنتشر في الجنوب التونسي/ على الحدود التونسية الليبية، حيث تتولى ترحيل التونسيين والأفارقة، عبر اجتياز الحدود التونسية–الليبية أولا، ثم الدخول إلى التراب الليبي ثانيا، وأخيرا الإبحار باتجاه الشواطئ الإيطالية.

ويعمل المنظمون لصالح رؤساء لهم يمدونهم بطلباتهم: (عدد المهاجرين المرغوب في تسفيرهم)، ثم يتولون إثر ذلك البحث عمن تتوفر فيه الشروط. ولتجنب المغامرات، ولمزيد من إحكام التنسيق يحتفظ المنضمون بقوائم احتياطية يلجئون إليها عند الحاجة. وساهم انتشار الهاتف الجوال ومختلف تقنيات الاتصال الأخرى (كالإنترنت) في تسيير العمل وتأكيد إحكامه.

وعلى خلاف الشبكات الأخرى، تضعف العلاقات الشخصية هنا، لتعوضها علاقات تعاقدية يغلب عليها منطق الالتزام رغم غياب أطراف محايدة تسهر على احترام بنود العقد، على غرار ما هو معمول به في مجال التهريب، وهو ما فاقم عمليات التحايل، فهي شبكات تستند إلى السطوة، ولذلك فإن معاملة المهاجرين تقترب مما يمكن تسميته بـ«التجارة في المهاجرين» ■

◆ **يُسقط الشباب أحلامهم على أوروبا فيعيدون رسمها بألوان حُرموا منها في أوطانهم**

◆ **ساهم الهاتف الجوال والإنترنت في تيسير عمل الشبكات الدولية للتهريب**

الهجرة السرية إمكانية أن تكون مصدرا للرزق. لذلك تعد لها العدة، فتستقطب أيدي عاملة، إما متخصصة أو غير متخصصة، وتوفر المعدات والأموال اللازمة. وبدأت هذه الشبكات تتنامى منذ أواسط العشرية الحالية، وبعد أن وضعت أغلب دول المغرب العربي قوانين متشددة للحد من الظاهرة (مكافحة الظاهرة).

وتتألّف هذه الشبكات من أشخاص ينتمون، عادة، إما إلى الوسط البحري، ليتولوا ترتيب المسائل الفنية/التقنية: كشراء المعدات، وملاحة السفن... إلخ...أو إلى أوساط تتألف ممن طردتهم الدول الأوروبية (خصوصا إيطاليا وفرنسا) لأسباب مختلفة. ويتولى هؤلاء عادة اجتذاب المهاجرين وإقناعهم بذلك، ولهؤلاء تسميات مختلفة حسب جهات البلاد التي يأتي منها المهاجرون، مثل: لقاطة، أي الذين يلتقطون المهاجر، أو جلابة، أي الذين يجلبونه، أو الخيط، وهو الرابط أو الوسيط..... إلخ.

تنقسم الأعمال، في هذه الشبكات، وفق عاملي الخبرة والقدرة، وهي العوامل ذاتها التي تحدد مقدار المساهمة المالية. وتنتشر هذه الشبكات على طول السواحل التونسية، خصوصا منطقة الساحل، وتستفيد من أزمة الأيدي العاملة في قطاع الصيد البحري من جهة، ومن انتشار سوق سوداء لقطع الغيار

فردريك جولي*

حرب إنسانية ضد المرض والغربة و«التعقيدات» القانونية:

طالبة القانون و«المهاجر السرّي»

REUTERS

لسنوات طويلة، جعلت الشابة الفرنسية «آن» من قضية شاب إفريقي مهاجر بشكل سرّي، قضيتها الأساسية، وساندته بلا كلل من أجل الحصول على حقوقه الإنسانية. عندما وصل أداما إلى باريس، كان مجرد شاب بائس، مريض بالدرن، فضلا عن وضعه غير القانوني. قصة أداما وآن هي قصة معاناة إدارية تفوق الوصف.

* Frederic Joli متحدث باسم اللجنة الدولية في باريس

بدأت الأحداث عام 1998، عندما كانت «آن» تدرس القانون، وتعمل في مستشفى «سانت–أنطوان» في باريس لحساب جمعية «Droits d'Urgence»، وهي من جمعيات عديدة تسعى لحصول الأشخاص، الذين يعيشون أوضاعا هشة وشديدة الصعوبة، على حقوقهم.

كانت آن تعمل متطوعة، عدة مرات أسبوعيا، لمساعدة من لا مأوى لهم، والمرضى في المستشفيات، والنساء اللاتي يتعرضن للضرب. وفي هذا السياق، تعرفت على أداما البالغ من العمر 30عاما، ويعيش بشكل غير قانوني في فرنسا، في عزلة تامة، فرضها عليه حاجزان، هما اللغة والمرض. تتذكر آن هذه الفترة: «كنت كالطفل الوليد الذي لا يفقه شيئا، وكانت هذه أول مرة أرى فيها مأساة مجسدة أمام عينيّ. اعتدت أن أرى أناسا يعيشون في شدة الضيق والضعف، على المستويين البدني والنفسي، إضافة إلى العزلة الكبيرة المفروضة عليهم. لكن ما أثّر في نفسي، في حالة أداما، هو حاجز اللغة الذي يضاف إلى كل هذه المآسي. كان عاجزا عن حل ما يواجهه من مشاكل. فكيف للمرء التعامل مع إجراءات إدارية معقدة بلغة لا يعرف مفرداتها؟».

لم يكن لدى أداما رفيق، سوى ذلك المرض الذي احتل جسده، منذ سنين. كان درن العظام ينخر هيكله العظمي وساقيه بلا رحمة. إلا أن هذا المرض، الذي يستلزم سنوات طويلة من العلاج والرعاية المكثفة، كان الضمان الوحيد لبقائه في فرنسا، إذ يحصل كل ثلاثة أشهر على تصريح بالإقامة، يصدره مقر محافظة باريس، لأسباب مرضية، وكانت آن تساعده على إتمام الإجراءات بشكل فعال.

تحسنت حالة أداما، وبات مرضه تحت السيطرة، حتى جاء اليوم الذي أكد فيه طبيبه المعالج على شفائه منه، وهو ما يعني بالنسبة له استحالة بقائه في فرنسا. بذلك، تجددت مشاعر اليأس والخوف من توقيفه في الشارع أو في المترو للتأكد من هويته، وهو ما قد يترتب عليه اقتياده قسرا إلى خارج الحدود. وبسبب عدم حصوله على تصريح إقامة، لم يكن أمام أداما سوى القبول بأداء أعمال صغيرة، وبشكل سري. تقول آن: «ينص القانون الخاص بالأجانب على أن بإمكان الشخص الأجنبي أن يبقى على الأراضي الفرنسية، إذا ثبتت استحالة علاجه في بلاده. وعندما تحسنت حالة أداما بعد نجاح الجراحات، التي أجريت في ساقيه، قالت السلطات إنه يمكنه استكمال العلاج في بلده. ولكن هذا الأمر كان مجافيا للحقيقة، فهو لا يمتلك الموارد اللازمة لذلك، كما أن حياته هنا، ولديه تصريح عمل كأستاذ للغة الإنجليزية في المعاهد والمدارس، ويستطيع أن يكسب قوت يومه، ويدفع الضرائب، وما إلى ذلك». بعد الإقامة كل هذه السنوات في فرنسا، يرغب أداما في البقاء في باريس. لكن كيف؟ فمحافظة باريس لا توفر أي حلول، وإجراءات الطعن معقدة، وعدد الحالات المماثلة، التي يُنظر فيها، كبير. تفتق ذهن آن عن فكرة، هي أن تكون إقامته لدى أسرتها في محافظة أرديش النائية، حيث يقل عدد الحالات المماثلة التي تنظرها السلطات هناك. وبذلك، بات أداما مقيما رسميا في بلدة أوبنا، إلا أنه واصل عمله في باريس. وبفضل أسرة آن ومثابرتها، نجح في الحصول أخيرًا على تصريح إقامة طويل الأجل، يتيح له فرصة السفر إلى بريطانيا أو الولايات المتحدة للدراسة وتحسين مهاراته كمدرس للغة الإنجليزية.

تعود آن بذاكرتها:«كان والداي رائعين، وتوليا أمره، وأجريا جميع الإجراءات له، في الفترة التي سافرت فيها إلى جنوب أفريقيا، لمدة عام للدراسة. تكفلا بمصاريف سفره بالقطار من أرديش إلى باريس، وبذلا كل ما في وسعيهما ليبقى في البلاد. كما دفعا الضرائب المستحقة عليه في أرديش، وتحولت أسرتي إلى أسرة بديلة بالنسبة له. كانت الأمور أكثر سهولة في أوبنا، ولم يواجه أداما تعنت الموظفين الذي واجهه في باريس. خلاصة القول أن كل أموره تمت تسويتها».

في 2008، وبعد مرور 13 عاما على لقائه آن، للمرة الأولى، ونتيجة للمساعي الشاقة التي بذلتها وأسرتها، حصل أداما أخيرًا على الجنسية الفرنسية. واليوم، يعيش أداما بعيدا عن بلده الأم، الذي عاد إليه مؤخرا ليلقي نظرة وداع أخيرة على والدته. كما يواصل عمله مدرسا للغة الإنجليزية، ويعيش حاليا في شقة صغيرة في باريس، لكنه لم يتزوج بعد. ولا تزال آن تعمل محامية، وهي تواصل عملها التطوعي، الذي تؤمن به، لصالح المهاجرين السريين ■

من بحر «الهجرة السريّة» إلى بحر الأدب

محمد طرنيش*

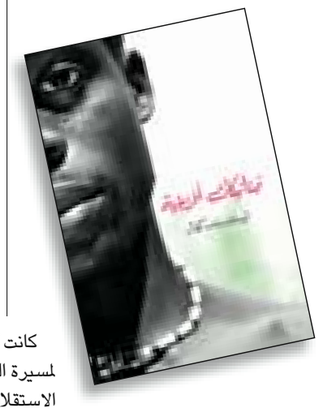

ربما كان من حسن حظي الجمع بين العمل في المجال الصحفي والتطوع للعمل الإنساني، حتى أصبح كلاهما متمما للآخر. عن طريق الصحافة عرفت طريقي إلى المغامرين في قوارب الموت، فتابعت قصصهم، واستمعت إلى حكاياتهم منذ انطلاقهم من بلدانهم حتى وصولهم إلى شواطئ بلادنا، ليبيا. وشاهدت بعضهم يقطع الفيافي والقفار سيرًا على الأقدام، والتقيت بعضهم في عدد من المناطق الصحراوية أثناء زياراتي للاطلاع على معالمها التاريخية.

كانوا يحملون زادهم وما يكفيهم من ماء وما خف حمله من ثياب. يصارعون الصحارى مترامية الأطراف، ويعاركون الجبال الصامتة، ينامون في الكهوف للاحتماء من الوحوش الضارية، يحثون الخطى نحو الغد الجميل، حالمين بالجنة الموعودة.

كنت أعتقد بأن جميع الذين يغامرون بحياتهم في هذه القوارب هم من الشباب العادي، أي ممن حرموا نعمة التعليم، أو من متوسطي التعليم، أو ممن لم ينالوا حظهم من الثقافة والوعي. واستمر هذا الاعتقاد راسخا لدي لمدة من الزمن إلى أن قابلته ذات يوم. شاب في الثلاثين من العمر، نحيف، طويل، حنطي البشرة، هادئ، دائم الابتسام. ومنذ أن عرفت أنه من إريتريا، وأنه كان قاصدًا أوروبا عبر القوارب، ولم يتمكن من الوصول بعد محاولات فاشلة، منذ تلك اللحظة أصبحنا أصدقاء، وأحس كل منّا بأنه قريب للآخر، وأنه يعرفه منذ سنوات طويلة.

التحق الشاب بالمثقفين في البلاد، فأعجبوا به، وبصدقه وطيبته. وما هي سوى بضعة أشهر حتى أصبح واحدًا منهم، هذا الذي غادر وطنه هربًا من تداعيات نزاعات طاحنة دامت سنوات، وأحرقت الأخضر واليابس، وشردت مئات الآلاف من ديارهم، وتركت مثلهم من المعاقين.

هذا هو صديقي المهاجر أبو بكر حامد كهال. اكتشفناه بين مئات من المهاجرين كاتبا ملتزما، وأديبا مثقفا، وروائيا مثابرا، بالإضافة إلى أنه قاريٌ نهم لا يكاد يقع كتاب تحت عينيه، حتى يبادر إلى قراءته والاطلاع عليه.

كان قدره أن لا ينتهي به المطاف على صخور إيطاليا، أو في قاع البحر، بل في وسط المشهد الثقافي الليبي، ليصبح بعد سنوات قلائل أحد أهم الكتاب والروائيين الأجانب المقيمين في ليبيا. استقبله الأدباء والكتاب، ورحبوا به، وأحبوه فبادلهم المشاعر الإنسانية ذاتها، وأحاطوه بعنايتهم، فصار واحدا منهم، وكان عند حسن ظنهم به. وساهم في الكتابة الصحفية، فكان لمقالاته طعم خاص ومذاق مميز. وكتب القصيدة الشعرية فكان لها حظها الوافر من القبول والاهتمام. وشارك بالقصة القصيرة فكان له أسلوبه ولونه. أما الرواية فهي ميدانه، الذي وجد فيه نفسه، فبرع فيه، وكانت الوسيلة الأقرب إليه للتعبير، كأن القدر أنقذه من صراع الأمواج العاتية نحو شواطئ أوروبا، ليرميه في بحار الرواية التي أجاد العوم فيها، وبرهن على مستوى راقٍ من التمكن.

كانت أولى رواياته «رائحة السلاح»، وفيها يؤرخ لمسيرة النضال الذي خاضه شعبه من أجل الاستقلال عن إثيوبيا. وكان كتابه الثاني عن صديقه الشاعر الليبي الجيلاني طريبشان، الذي ربطته به صداقة عميقة، لسنوات طويلة، وعندما غيّبه الموت، عكف على كتابة سيرته الذاتية، تعبيرا عن وفائه لصديقه العزيز، فكان المرجع الوحيد لدارسي حياة الشاعر الفقيد. وجاء كتابه الثالث رواية اختار لها اسم: «بركنتيا» وهي كلمة مركّبة من كلمتين: «بر»، وتعني الأرض، و«كنتيا»، ومعناها «المرأة الحكيمة العاقلة». وفيها تناول المجتمع الإريتري من الداخل، كما استعرض جماليات الحياة الطبيعية في بلاده التي تجمع بين الجبال العالية والسهول المنبسطة الممتدة حتى ساحل البحر، مشكلة أهم المعالم البيئية الرائعة في إريتريا. وفي روايته: «تيتنكات أفريقية»، يروي جزءا من سيرته الذاتية، التي طالما طالبناه بها، ويتحدث عن محاولته الهجرة غير الشرعية، من خلال شخصية شاب أفريقي لم يجد في وطنه العيش الكريم، وفيها يعبر بصدق من خاض التجربة، عن قدرة الإنسان على التشبث بالحياة، حتى آخر لحظة.

لم يتوقف صديقي المهاجر عن الكتابة، فمازال لديه الكثير مما يمكن أن يقدمه شعرًا ونثرًا، وهو يحتفظ بعدد من مخطوطات الكتب، التي ينوي الدفع بها إلى المطابع، وتتنوع ما بين القصة القصيرة والرواية والشعر والدراسات في التراث الأفريقي، كما يعمل على إعداد شريط سينمائي. وقد ترجمت بعض رواياته إلى لغات أجنبية، وأعيدت طباعة بعضها الآخر أكثر من مرة، وحصلت روايته «تيتانيكات أفريقية» على لقب الرواية الأكثر مبيعًا في العام 2008، بحسب الملف الثقافي في صحيفة القدس العربي الصادرة في لندن ■

ICRC

* كاتب ليبي ومدير تنفيذي لجمعية حقوق الإنسان في مؤسسة القذافي

محمد البنوني*

أخذت الهجرة مجريات مختلفة، في الأعوام الأخيرة، نتيجة لتغيرات سياسية واقتصادية وأمنية في دول عديدة، مما أعاق بشكل كبير طرق الهجرة الشرعية، واضطر راغبون في الهجرة إلى سلك طرق محفوفة بالمخاطر.

الهلال الأحمر الليبي:

جهود مستمرة لتخفيف معاناة المهاجرين

أدى أسلوب مكافحة الهجرة، الذي انتهجته دول كثيرة، إلى تفاقم الحالات الإنسانية وتشتت الأسر، وسعى العديد من دول العبور ودول المقصد إلى مساعدة هؤلاء المهاجرين، ولكن متطلباتهم الإنسانية تتزايد، وتحتاج إلى تدخل المنظمات والمؤسسات الإنسانية التي تقوم بدور مكمل ومهم لدور السلطات المحلية في هذا المجال. ومنذ إقرار الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر بضرورة العمل على تحسين الظروف المعيشية للمهاجرين، حسب ما جاء في توصيات المؤتمر الدولي الثلاثين المنعقد في جنيف عام 2007، بدأت الجمعيات الوطنية بوضع خطط عمل والبحث عن شركاء من أجل تحسين الأداء وتعزيز القدرات لمواجهة هذا التحدي، وعقدت العديد من الاجتماعات الإقليمية، وورش العمل بهدف تحديد دور الجمعيات الوطنية وسبل التعاون في مجال الهجرة.

وبحكم الموقع الجغرافي لليبيا كبلد مقصد وبلد عبور في آن، لزم على جمعية الهلال الأحمر الليبي التعاون الوثيق مع السلطات المحلية لتقديم الخدمات الإنسانية للمهاجرين الموجودين على الأراضي الليبية. لذلك وضعت الجمعية، بالاتفاق مع السلطات المحلية المعنية، برنامجا إنسانيا شاملا يهدف إلى زيارة دور الإصلاح ومراكز الإيواء للمهاجرين بشكل سرّي. وتهدف هذه الزيارات إلى تحسين الظروف المعيشية، والوقوف على الاحتياجات الصحية والاجتماعية، وتوفير بعض الاحتياجات الخاصة، وخدمة تبادل الرسائل العائلية، وربط الأواصر العائلية. وباشرت جمعية الهلال الأحمر الليبي تنفيذ هذا البرنامج منذ شهر أيار/مايو2009. وبدأت الزيارات ببرنامج تقييمي أولي للاحتياجات، تلته زيارات أخرى من فرق متطوعين يشاركهم فيها أطباء وفنيو تحاليل طبية ومسؤولو برامج البحث عن المفقودين.

ICRC

وكانت لهذه الزيارات نتائج إنسانية ملحوظة عززت الثقة والتعاون بين جمعية الهلال الأحمر الليبي والسلطات المحلية المعنية، كما كان لها أثر إيجابي على المستفيدين من الخدمات المباشرة للجمعية التي تشمل: الكشف الطبي، الفحوص والتحاليل الطبية، توفير مستلزمات النظافة الشخصية، توفير الملابس والأغطية، توفير الحليب للأطفال ومستلزمات الأمهات والأطفال، تسهيل تبادل الرسائل العائلية، وتوفير بعض الأدوية.

وشهد عام 2009 أكبر تدريب ميداني لحالات الإنقاذ والإغاثة في حالات الكوارث، استمر أسبوعا، وأجريت خلاله مناورات لإنقاذ المهاجرين في عرض البحر وعلى الشواطئ، وشاركت فيه عدة جمعيات وطنية، ووفرت السلطات المحلية رجال الأمن وقوارب الإنقاذ وسيارات الإسعاف. كما تعاونت الجمعية بشكل مستمر مع المنظمة الدولية للهجرة، في برامجها كافة، لتقديم المساندة الممكنة للتخفيف من الآثار الصحية والنفسية التي يعاني منها الكثير من المهاجرين الذين يتعرضون للحوادث، وخاصة النساء والأطفال منهم باعتبارهم الفئات الأشد ضعفا ■

*مدير إدارة العلاقات الدولية في الهلال الأحمر الليبي

الحقوق القانونية للمهاجرين سرا

يجهل الكثير من المهاجرين بشكل غير قانوني أن لهم حقوقا قانونية منصوصا عليها في اتفاقيات دولية. ما هي هذه الحقوق؟ وما هي إمكانية تطبيقها والحصول عليها؟ وهل هناك فرق بين حقوق المهاجرين النظاميين والمهاجرين غير النظاميين؟

AFP

يصعب تحديد حجم الهجرة غير المنظمة نظرًا لطبيعتها، ولكون وضع المهاجر السري يشمل أصنافا متباينة من المهاجرين فمنهم:

1– الأشخاص الذين يدخلون بطريقة غير قانونية دول الاستقبال ولا يسوون وضعهم القانوني.

2– الأشخاص الذين يدخلون دول الاستقبال بطريقة قانونية ويمكثون هناك بعد انقضاء مدة الإقامة القانونية.

3– الأشخاص الذين يعملون بطريقة غير قانونية خلال إقامة مسموح بها.

وتتضارب التقديرات بشأن الهجرة غير المنظمة، فمنظمة العمل الدولية تقدر حجم الهجرة السرية ما بين 10٪ إلى15٪ من عدد المهاجرين في العالم البالغ بحسب التقديرات الأخيرة للأمم المتحدة حوالي 180 مليون شخص وبحسب منظمة الهجرة الدولية فإن حجم الهجرة غير القانونية في دول الاتحاد الأوروبي يصل إلى نحو مليون ونصف مليون شخص.

وتقدر الأمم المتحدة أعداد المهاجرين غير الشرعيين إلى دول العالم المتقدم خلال الأعوام العشرة الأخيرة بنحو 155 مليون شخص. كما توقعت منظمة الهجرة الدولية في تقرير أصدرته مؤخرًا ازدياد الهجرة غير المنظمة، جراء الأزمة الاقتصادية التي يشهدها العالم الآن، لكنها أكدت أن حوالي 15٪ من المهاجرين في العالم غير نظاميين. ويعتقد العديد من المراقبين للهجرة الدولية أن «أعداد المهاجرين غير النظاميين في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) تصل إلى عشرين مليون عامل، ومعظم هؤلاء العمال دخلوا إلى تلك الدول في الأعوام العشرة الأخيرة»، مشيرين إلى أن «العمال غير الموثقين أو الذين لا يعملون في إطار منظم عادة ما يعملون في ظروف عمل أكثر سوءًا من غيرهم من العمال وهناك عدد كبير من أصحاب الأعمال يفضلون تشغيل هذا النوع من العمال من أجل التربح من المنافسة غير العادلة».

وفي أسوأ الظروف فإن العمال المهاجرين غير النظاميين يعملون في ظروف أشبه بالعبودية وهم نادرًا ما يلجأون للقضاء خشية التعرض للطرد أو الإبعاد، وفي العديد من الدول لا يملكون حق الطعن على القرارات الإدارية التي تؤثر عليهم.

ويشير تقرير صادر عن «المجلس القومي لحقوق الإنسان» في مصر إلى «زيادة عدد ضحايا الهجرة غير المنظمة من البلدان العربية خلال الأعوام العشرة الأخيرة بنسبة 300٪، مما يمثل استنزافًا مستمرًا للموارد البشرية لدول الجنوب».

الهجرة غير المنظمة في المواثيق الدولية

أشارت ديباجة دستور منظمة العمل الدولية، التي تأسست عام 1919، إلى حماية مصالح العمال المستخدمين في بلدان غير بلدانهم. وهناك جملة من الاتفاقيات الدولية الصادرة عن منظمة العمل الدولية، وتجعل من أهدافها حماية حقوق العمال المهاجرين منها:

1– الاتفاقية الدولية رقم 97 لسنة 1949 بشأن الهجرة للعمل، وتعتبر من أهم الاتفاقيات التي عالجت موضوع الهجرة، إذ دخلت حيز التنفيذ في أيار/مايو 1952، وبلغ عدد الدول التي صادقت عليها 43 دولة من بينها دولة عربية واحدة هي الجزائر.

2– الاتفاقية الدولية رقم 143 لسنة 1975 بشأن العمال المهاجرين (أحكام تكميلية)، والتي دخلت حيز التنفيذ في كانون الأول/ ديسمبر 1978، ولم تصدّق أي من الدول العربية عليها، وتركز هذه الاتفاقية على الهجرة غير المشروعة والجهود الدولية المطلوبة لمقاومة هذا النوع من الهجرة، كما تركز على تحقيق المساواة في الفرص والمعاملة بين العمال المواطنين وغيرهم .

3– الاتفاقية الدولية الرقم 111 لسنة 1958 بشأن التمييز في الاستخدام والمهنة، التي دخلت حيز التنفيذ في حزيران/ يونيو 1960، وهي من الاتفاقيات العامة التي تدعو إلى تكافؤ الفرص والمساواة في المعاملة، في الاستخدام والمهنة، والقضاء على أي تمييز.

AFP

اتفاقية لحماية حقوق جميع المهاجرين

في 18كانون الأول/ديسمبر 1990، أقرت الأمم المتحدة الاتفاقية الدولية لحماية حقوق جميع العمال المهاجرين وأفراد أسرهم، وتم التصديق عليها في تموز/يوليو 2003، وهي:

1– اتفاقية شاملة تغطي حقوق العمل والحقوق الثقافية والتعليم والصحة والسكن وغيرها.

2– تشمل العمال المهاجرين النظاميين وغير النظاميين.

3– تشمل العمال المهاجرين وأفراد أسرهم.

4– تسري على جميع العمال المهاجرين، دون أي اعتبار لمدة العمل والإقامة، لذلك فهي تسري على العمال المؤقتين العاملين لمدة محددة.

وتؤكد هذه الاتفاقية على ارتباطها بمواثيق حقوق الإنسان التي أقرتها الأمم المتحدة وأنها جزء من هذه المواثيق، كما تؤكد على أن يتمتع العمال المهاجرون بمعاملة لا تقل عن المعاملة التي تنطبق على رعايا الدولة من حيث الأجر وشروط العمل والاستخدام الآخر. وهي تشير إلى أن حقوق العمال المهاجرين يجب أن تصان، حتى إن خالف العامل المهاجر شروط الإقامة أو الاستخدام. كما تنص على تمتع العمال المهاجرين وأفراد أسرهم بالمعاملة نفسها المكفولة لرعايا الدولة في هذا الشأن، وهو ما يتطلب بالتالي استفادة العمال المهاجرين وأسرهم من مزايا المعاش التقاعدي، والحقوق التأمينية الأخرى، ويشمل ذلك العمال المهاجرين بشكل غير قانوني.

إلى ذلك توجب الاتفاقية أن يكون لهؤلاء الحق في التنظيم أي في الانضمام إلى أية نقابة عمالية، وإلى أي جمعية منشأة، أو تكوين جمعيات ونقابات، وفقا للقانون بقصد حماية مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية والنقابية ومصالحهم الأخرى وغيرها من الحقوق...

لم شمل الأسرة

وتركز الاتفاقية على حق الإقامة ولم شمل الأسرة، فتطالب دولة العمل بأن تنظر بعين العطف إلى أسرة العامل المتوفى، على أن تراعي طول الفترة التي أقاموا خلالها في الدولة، وتلزمها باتخاذ التدابير المناسبة لضمان وحدة أسر العمال المهاجرين. وتكفل الاتفاقية للعمال المهاجرين وأسرهم الحق في التعليم للأطفال، بغض النظر عن مدى مشروعية إقامتهم، هم أو أي من والديهم، في دولة العمل. وتنص الاتفاقية على أن تدمج الدولة أولاد العمال المهاجرين في النظام المدرسي المحلي، خاصة تعليمهم اللغة المحلية كما تعمل الدولة على تيسير تعليم اللغة والثقافة الأصليتين لأولاد العمال المهاجرين، وتجيز أن توفر الدولة برامج تعليمية خاصة باللغة الأصلية لأولاد العمال المهاجرين.

وتضمن الاتفاقية للمهاجرين النظاميين وغير النظاميين احترام هويتهم الثقافية، والحق في الوصول إلى خدمات التوجيه والتدريب المهنيين والتوظيف، والخدمات الاجتماعية.

كافة هذه الحقوق المشروعة للإنسان وأفراد أسرته أينما حل واستقر هي حقوق متاحة لكل الأفراد على السواء وفق المواثيق والعهود الدولية، غير أن الوضع في بعض الدول يختلف، فقد تكون هناك هيمنة كبيرة وغلبة واضحة للسكان المواطنين على المهاجرين والعاملين، وبالتالي فإن تطبيق الحقوق الواردة في هذه الاتفاقية يعني تحديات كبيرة، مما يفرض على هذه الدول البدء في إعادة التوازن في أسواق العمل لتصل إلى النسب المعقولة دوليا، حتى تتمكن من تنفيذ التشريعات والالتزام بالمواثيق الدولية، وبالتالي عدم المساس بالحقوق الأصيلة للإنسان المستقر في هذه المنطقة أو المهاجر من أجل العمل ■

د. أسامة بدير*
سامي محمود**

* مستشار مركز الأرض لحقوق الإنسان في القاهرة
** صحافي مصري

حكاية دمعة هاربة بين 4 بلدان

هكذا تحدث نور

AFP

محمد سلطان*

«لا أستطيع وصف مشاعري عندما جاءني صوتها عبر الهاتف للمرة الأولى منذ سنين. كنت قد فقدت الأمل تماما بالعثور عليها هي وأولادي. وعندما تملكني اليأس، سمعتها تنطق اسمي: نور**. عرفت صوتها من الوهلة الأولى، إنها زوجتي. واللّه، سقطت سماعة الهاتف من يدي لشدة ربكتي، في هذه اللحظة .. ناولني صديقي في الغرفة السماعة مرة ثانية. بكينا معا أنا وهي، وزاد بكائي عندما سمعت أصوات بناتي. لا أعرف، إلى الآن، كيف احتملت هذا الموقف، ولا من أين جاءتني القوة لمقاومة كل هذا القهر طوال فترة ابتعادنا...»

كان نور يعمل سائقا لإحدى عربات النقل الثقيل، بين بلده وبلدان مجاورة. المرة الأولى التي شاهدها فيها كانت في إحدى استراحات الشاي على الطريق، ويقول نور إنه وقع في غرامها، فورا. تزوجها وأنجب منها بنتين، وجعل من وطنها وطنه، ومن حبها مستقره. ولكن، بعد ثمانية أعوام من الزواج والحياة الهانئة والمستقرة مع زوجته وابنتيهما، جاءته الشرطة في ليلة حزينة، فقلبت حياته رأسا على عقب.

ستة من أفراد الشرطة اقتحموا منزله، عندما كان نائما نوما عميقا آمنا. يقول نور: «دخلوا من الباب والنوافذ. دخلوا من جميع الاتجاهات. وضعوني في عربة سارت بي ساعات دون أن أعرف مصيري. سألت، فلم يجبني أحد. حاولت أن أفهم، فلم أستطع. وعندما فتحت عينيّ، وجدتني في زنزانة». هناك، بقي نور 12 يوما. وبعد أن فتك به القلق، وخارت قواه وجد نفسه يواجه اتهامات بارتكاب أعمال غير قانونية يؤكد نور أنه لا يعلم عنها شيئا. يقول: «كنت أنفي كل الاتهامات، وأكرر نفيها، لكن أحدا لم يسمعني. وفي كل مرة أمثل فيها أمام المحقق، كان يسألني سؤالين أو ثلاثة، ثم يعيدونني إلى زنزانتي. وفي كل مرة كنت أمثل فيها أمام المحقق، كنت أجرجر قدميّ جرا، وأشعر بأن هذه هي نهاية حياتي... عشت على هذه الحالة سبعة أشهر كاملة، حتى تملكتني قناعة بأن الموت في هذا المكان هو مصيري المحتوم».

في الزنازين، يتشابه الليل والنهار، كما تتشابه الأيام. وفي إحدى ليالي الزنزانة، اقتاده جندي إلى عربة ترحيلات، وأخبره بأنه سينتقل إلى سجن آخر. «هي النهاية إذن»، هكذا قال نور لنفسه، واستسلم تماما لما تخيل أنه قدره، وألقى بجسده بصعوبة شديدة في العربة. وفي سجنه الجديد، قضى ليلته الأولى في انتظار لحظة النهاية. مرت الليلة بطيئة وكئيبة وموحشة، ككل لياليه التالية، ولكنها مرت. وهكذا قضى سبعة أشهر أخرى، كأنها سنوات، قبل أن يتلقى خبر إعادته إلى سجنه الأول. عودته إلى سجنه الأول كانت تعني العودة إلى الحياة. وهناك، اعتاد حياة السجناء، إلى أن جاء مندوب من سفارة بلده في زيارة إلى السجن، اقتادوه بعدها بيومين مع خمسة من مواطنيه إلى سيارات ترحيل لتسليمه إلى سلطات بلاده. في البداية لم يكن يصدق، لكنه عندما وصل إلى الحدود، بكى من الفرحة: «شعرت للمرة الأولى منذ عام ونصف، تقريبا، بأن الحياة ستبتسم لي مجددا».

في بلده، توجهوا به مباشرة إلى أحد المستشفيات. وعندما تعافى بعد 25 يوما، خضع مرة أخرى للتحقيق قبل أن يطلق سراحه، وتحدد إقامته في منزله. كان هذا أفضل الخيارات المرة. يقول نور: «قلت لنفسي إنني الآن حر، على الأقل، ونجوت من الموت، ويمكنني رؤية والدتي وإخوتي، واستدعاء زوجتي وابنتيّ ليعشن معي،بعد فراق قارب عامين». لكن الحياة كانت تخبئ له المزيد.

في بيته، أخبرته أمه بأن زوجته جاءت إلى أهله، وحكت لهم ما جرى له، وبأنها لا تعرف عنه شيئا، فقرر إخوته أن يتخلصوا من هذه المرأة التي لا يعرفونها، ولا يصدقونها، بحجة أنها «سرقت منهم أخاهم، وأجبرته على البقاء معها في بلدها»، وقرروا أن يحتفظوا بالطفلتين حتى يتبينوا الحقيقة. لكن زوجته اكتشفت المؤامرة فهربت مع ابنتيها، واستنجدت بصديق مقرب إليه، ساعدها على الهروب إلى مصر.

يقول نور: «أوشكت على الجنون، إلى أن زارني صديقي الذي ساعد زوجتي، فقررت الهرب واللحاق بها في مصر». وهناك، نصحه لاجئون بأن يحاول معرفة ما إذا كانت زوجته سجلت نفسها في مكتب شؤون اللاجئين التابع للأمم المتحدة، وأرشدوه إلى مقر اللجنة الدولية، ليسأل عنها في برنامج «لم شمل الأسر»، و«وحدة التقصي والبحث عن المفقودين».

في مقر اللجنة الدولية في القاهرة، علم نور بأن زوجته سجلت نفسها في برنامج «لم شمل الأسر»، ثم سافرت إلى أستراليا، وتذكر ساعتها أن لزوجته أختا هناك، لم تكن على اتصال دائم معها. ورغم الارتياح الذي شعر به، لأن أسرته لم تعد في خطر، فإن شوقه إليهم أرّقه كثيرا، فكان يتردد على مقر بعثة اللجنة الدولية يوميا. عشرة أشهر مرت عليه، والقلق واليأس يظللانه، حتى كاد أن يفقد أمله في رؤية أولاده. يقول نور: «فعلت كل شيء عاقل أو مجنون، منطقي أو غير منطقي، لأعرف أي أخبار عن أسرتي. كنت أنتظر كل الرحلات القادمة من أستراليا في المطار، وأسأل كل شخص أفريقي عن أسرتي، حتى ظنوني مجنونا، واعتاد العاملون في المطار رؤيتي. إلى أن تمكنت اللجنة الدولية من العثور عليها، عن طريق الصليب الأحمر الأسترالي، بعد أن تقدمت زوجتي بطلب للحصول على خط هاتف أرضي».

في الثانية صباحا، تلقى نور مكالمة من زوجته للمرة الأولى منذ ثلاثة أعوام تقريبا. سمع صوتها تنطق اسمه: «نور»، فسقطت سماعة الهاتف من يده. انتابته كل المشاعر في لحظة واحدة: فرحة، وخوف، وحزن، وذكريات أليمة،وعرف أن له ابنا ولد عندما كان سجينا، هو الآن في الطريق إلى رؤيته للمرة الأولى في أستراليا. «لا أستطيع التعبير عن مدى امتناني للجنة الدولية للصليب الأحمر، ولا لبرنامج «إعادة الروابط العائلية». فقدت ثقتي في أي مخلوق، لكنني وجدت هنا من يحاول تخفيف آلامي. شكرا لكم لأنكم أبقيتم آمالي حية». هكذا تحدث نور، وهربت دمعة من عينيه ■

* مسؤول الإعلام والنشر ببعثة اللجنة الدولية في القاهرة

** اسم مستعار

بيار غايار:

ذكريات 20 عاما من العمل الإنساني في حرب الجزائر

طوال 20 عاما تقريبا، عمل بيار غايار مندوبا عاما للجنة الدولية للصليب الأحمر في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وشهد خلال عمله حرب التحرير الوطني في الجزائر منذ بدايتها عام 1954، وكان هو من اقترح على اللجنة الدولية مساعدة الأسرى من طرفي النزاع. ...

ICRC

حاوره: محمد بن أحمد*

زار غايار أماكن احتجاز لأسرى جزائريين لدى الإدارات الفرنسية الحاكمة للجزائر وقتها، كما توسط من أجل إطلاق أسرى فرنسيين لدى جبهة التحرير الوطنية الجزائرية. وفي هذا الحوار يفتح غايار ملف ذكرياته لـ «الإنساني»، ويتحدث عن أنشطته، هناك، في الفترة التي استغرقتها عملية التحرير من 1954 إلى 1962.

■ متى استهلت اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنشطتها أثناء النزاع الجزائري؟

اقترحت على اللجنة الدولية مساعدة الأسرى منذ اندلاع «أحداث» 1954**. وقتها، تعين مخاطبة الحكومة الفرنسية، ولم يكن ذلك سهلا، فالجزائر كانت مكونة من ثلاث إدارات فرنسية، وكان الفرنسيون يعتبرون ذلك «شأنا داخليا». إلا أننا نجحنا في الحصول على ميزة خاصة عندما أبدى بيار مانداس فرانس رئيس الحكومة، آنذاك، موافقته على المساعي التي قام بها مندوبنا في باريس، وسمح للجنة الدولية بزيارة أماكن الاحتجاز في الجزائر والمغرب. وفي تلك الفترة، كان رئيس اللجنة الدولية رجلا صاحب رؤية، هو بول روجير، الذي دعا لعقد اجتماعين لخبراء دوليين (قانونيين، وسياسيين، وغيرهم) لمناقشة شأنين، هما الاضطرابات الداخلية، وتوفير المساعدة للمحتجزين السياسيين. ونشرت اللجنة الدولية نتائج هذين الاجتماعين في نشرات كتابية صغيرة، مهدت لميلاد القانون الدولي الإنساني، الذي كرسه بروتوكولا 1977 المضافان إلى اتفاقيات جنيف لسنة 1949. واستنادا إلى هذه الاستنتاجات التي انتهت إليها لجان الخبراء، وخاصة ذات الصلة بمساعدة المحتجزين السياسيين، تمكنّا من صياغة الطلب الذي رفعناه للحكومة الفرنسية لشرح الأنشطة التي كانت اللجنة الدولية ترنو إلى تنفيذها في الجزائر والمغرب.

ونلنا الموافقة على زيارة السجون في الجزائر، وكان الأمر يتعلق بإجراء زيارات عرضية، ولم تكن مسألة تكرار هذه الزيارات مطروحة في البداية. وعلى هذا الأساس، بدأنا زيارة السجون في الجزائر في آذار/مارس 1955.

■ هل زرتم جميع السجون؟

كنا نزور الأشخاص الذين جرى توقيفهم، تحديدا، إثر وقوع «الأحداث». وكان التصريح عاما، إلا أن غالبية السجناء كانوا متهمين، ولم يصدر ضدهم حكم بعد.

كان المتهمون يخضعون لسلطة قضاة التحقيق بموجب القانون الفرنسي، لذا كان يتعين علينا الحصول على تصريح من القاضي عند زيارة كل سجن حتى نتمكن من الالتقاء بالمتهمين دون وجود شهود. وأبدى بعض القضاة تحفظهم على ذلك الأمر، إذ ارتأى بعضهم، استنادا إلى مبدأ استقلال القضاء، عدم وجود أي التزام تجاه ما اتخذته الحكومة من قرارات. ولكن، رغم كل شيء، تمت المهمة بشكل طبيعي.

وفي وقت لاحق، وخلال هذه اللقاءات، التي كانت تتم دون وجود شهود، علمنا بوجود معسكرات احتجاز إدارية تسمى «مراكز إيواء»، بخلاف السجون. وكانت هناك ثلاثة مراكز في ذلك الوقت، واحد في كل منطقة كبيرة وهي: جرف لسكان مدينة قسنطينة، والثاني في مدينة البرواقية لسكان الجزائر العاصمة، والثالث في أرزيو لسكان وهران. وحصلنا أيضا على إذن بزيارة هذه المراكز الإدارية. وبالتالي شملت المهمة الثانية زيارة السجون ومراكز الإيواء. وكان عدد السجناء كبيرا، والزيارات طويلة.

بعد ذلك، وخلال إجراء المقابلات داخل مراكز الاحتجاز، علمنا أنه كان يجري احتجاز بعض السجناء في معسكرات محلية تابعة للجيش تسمى مراكز الفرز، قبل وصولهم إلى هناك. ففي كل قطاع عسكري يوجد مركز من هذه المراكز تديره كتيبة، ويُحتجز داخله أشخاص لقيامهم بأنشطة سياسية، أو ألقي القبض عليهم أثناء انخراطهم في أعمال مقاومة، وكنا نزور هذه المراكز أيضا. وأصبحت اللجنة الدولية، منذ ذلك الحين، طرفا فاعلا في مجال المساعدات الإنسانية أثناء النزاع الجزائري. وقد خصص لنا الجيش الفرنسي ضباط اتصال برتبة نقيب، ثم عقيد، وأخيرا جنرال، مما يدل على الأهمية التي كانت تحظى بها هذه المهمة.

وبطبيعة الحال، كان يرافقنا أثناء كل هذه الزيارات أطباء لتأييد الملاحظات التي نبديها إن وجدت. وبخلاف مراكز الفرز، تبين لنا وجود مراكز لإعادة التأهيل، كان الغرض منها، بلا شك، إعادة المقاتلين الذين وقعوا في الأسر إلى ساحة القتال. إلا أن بعض المثقفين الفرنسيين كانوا قد بدأوا، في ذلك الوقت، إدانة ممارسة التعذيب في الجزائر.

ICRC

كانت اللجنة الدولية طرفًا فاعلا في مجال المساعدات الإنسانية أثناء النزاع الجزائري

أدى تسريب 3 صفحات من تقرير للّجنة الدولية إلى توقف عملها عدة شهور في الجزائر

■ ماذا كان موقف اللجنة الدولية؟

نشرت الصحف عام 1957 أحد التقارير السرية، التي قدمتها اللجنة الدولية للحكومة الفرنسية، وسجلت فيها ملاحظتها أثناء أدائها مهمتها، وكان يشتمل على روايات عن التعرض للتعذيب. ونشرت صحيفة لوموند الفرنسية ثلاث صفحات منه. ووفقا للالتزامات التي تعهدت بها اللجنة الدولية للحكومة الفرنسية، كان يتعين الحفاظ على سرية التقارير. ولم يكن للجنة الدولية يد في عملية النشر، بالطبع، إلا أن ما حدث كان له وقع كبير على السلطات الفرنسية. وعجزت اللجنة الدولية عن العودة لممارسة عملها في الجزائر طوال عدة شهور. غير أن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أيقنت أهمية الأنشطة التي تتولاها اللجنة الدولية.

■ كيف كان وضع المقاتلين الجزائريين الأسرى؟

في السنوات الأخيرة من النزاع، ونتيجة لمساعي اللجنة الدولية لدى الجنرال سالان، الذي كان القائد العام في ذلك الوقت، صدرت تعليمات بأنه يحق للأشخاص الذين يقعون في الأسر، وهم يرتدون الزي العسكري ويحملون السلاح، الحصول على معاملة تقترب من المعاملة التي يلقاها أسير الحرب، ولكن دون الحصول على الوضع الخاص به. فنظرا إلى أن النزاع لم يكن نزاعا داخليا معترفا به، لم تشمله اتفاقيات جنيف رسميا. إلا أن الوضع قد شهد تطورا بدافع الرغبة في استعادة هؤلاء المقاتلين ممن يطلق عليهم حملة السلاح الذين سقطوا في الأسر. وأدى التعدد الكبير لفئات السجناء إلى قيام اللجنة الدولية بزيارة جميع مراكز الاحتجاز. وعند كل زيارة، تعين التعامل بالطبع مع السلطات المدنية والعسكرية الخاصة بكل منطقة (قسنطينة والجزائر العاصمة ووهران)، لتطلعها اللجنة على ما تبديه من ملاحظات.

وفي نهاية المهمة، كنا نلتقي في الجزائر العاصمة بالقائد العام والحاكم العام (وهو بمثابة أعلى ممثل للحكومة الفرنسية في الجزائر). وكان يجري في مقر اللجنة الدولية في جنيف إعداد تقرير نهائي بشأن المعسكرات التي تمت زيارتها وموجز يشتمل على بعض التوصيات والتعليقات. وكان أحد هذه التقارير هو التقرير الذي نشرته لوموند الفرنسية. إلا أن جميع هذه المساعي لم تنجح في وقف عمليات التعذيب في الجزائر، لكننا شعرنا بأننا ساهمنا في الحد من آثارها، لاسيما أن العديد من الضباط كانوا يعارضون هذه الممارسات. وبصفتي رئيسا لبعثة اللجنة الدولية، التقيت رئيس الحكومة، آنذاك، غي مولي، حتى تحظى ملاحظاتنا بالمساندة اللازمة.

■ في المقابل، كيف كان حال الأسرى من العسكريين الفرنسيين؟

طلبت شخصيا، وبإصرار، مساعدة العسكريين الفرنسيين الواقعين في الأسر في الجزائر، وذلك من الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والهلال الأحمر الجزائري (الذي كان في طور الإنشاء، آنذاك، وكانت تجري بينه والمقر في جنيف اتصالات منتظمة). كان الهدف هو الحصول على الموافقة على تطبيق مبدأ المعاملة بالمثل، في إطار ما كان يتم لصالح مختلف فئات السجناء الجزائريين.

ونجحت اللجنة الدولية أربع مرات في إقناع جبهة التحرير الوطنية بالإفراج غير المشروط عن ضباط فرنسيين سقطوا في أيديها أثناء عمليات المقاومة. ولم يكن عدد الأسرى كبيرا إلا أن وقع عمليات الإفراج، التي تمت مرتين، في تونس والمغرب كان مهما. وفي تونس، كان للحدث صبغة رسمية. وفي كل مرة قمت بتمثيل اللجنة الدولية، وكانت إجراءات التسليم تجري، بحضور صحافيين، كالتالي: يصل ضابط تابع لجيش التحرير الوطني بصحبة الأسرى، ثم يسلمهم رسميا للهلال الأحمر الجزائري، ليسلمهم بدوره للهلال الأحمر التونسي، ثم تستلمهم اللجنة الدولية بعد ذلك. وكنت أصطحب الأسرى إلى القنصلية الفرنسية لتتولى إعادتهم إلى وطنهم. أما في المغرب، فكانت عملية تسليم الأسرى الفرنسيين الذين سقطوا في الجزائر تجري في كل من الرباط ووجدة، حيث يقع فرع لمقر الهلال الأحمر الجزائري. وأتذكر أن عملية إطلاق سراح الأسرى في الرباط أجريت تحت رعاية الأميرة عائشة، شقيقة الملك الحسن الثاني، والتي كانت الرئيس الفخري لجمعية الهلال الأحمر المغربي، آنذاك.

■ كيف كانت علاقة اللجنة الدولية بالقوميين الجزائريين؟

أقامت اللجنة الدولية علاقات مع الجزائريين منذ البداية. أولا، عام 1955 مع فرحات عباس عندما قدّم للجنة الدولية طبيبا من وهران لتمثيل الهلال الأحمر الجزائري الوليد في جنيف، هو الدكتور بلقاسم بنتامي. ولم يكن من الممكن في ذلك الحين الاعتراف بالهلال الأحمر الجزائري رسميا، نظرا لعدم استيفاء شروط الاعتراف.

ولكن طوال فترة حرب الجزائر، كانت تربطني بالدكتور بنتامي صلات وطيدة لم تنقطع، وكانت بيننا أيضا علاقة جوار. وبفضل تدخله الشخصي، نجحت اللجنة الدولية في الحصول أربع مرات على إطلاق سراح أسرى فرنسيين. وبعد نهاية الحرب في 1962، تقلد الدكتور بنتامي منصب سفير الجزائر لدى الأمم المتحدة في جنيف.

وكانت اللجنة الدولية مهتمة أيضا بمراكز تجميع المدنيين بعد قيام الجيش الفرنسي بإجلائهم من مناطق إقامتهم، لإبعادهم عن جيش التحرير الوطني. ويمكن القول بأنهم كانوا كاللاجئين في وطنهم. وسارعت اللجنة الدولية إلى توفير المساعدات المادية لهذه المراكز، وشجعت الصليب الأحمر الفرنسي على

بيار غايار:
حياة في خدمة العمل الإنساني

1941: بدأ العمل في اللجنة الدولية وعمره 23 عاما بعد دراسته القانون.

1948: نائب رئيس بعثة اللجنة الدولية في فلسطين.

لمدة 20 عاما: مسؤول عن قسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في اللجنة الدولية.

1969– 1970: رأس القسم المعني بنشر اتفاقيات جنيف، وانضم للفريق المكلف بصياغة مشروع البروتوكولين الإضافيين لعام 1977.

1981: توقف رسميا عن العمل في اللجنة الدولية، لكنه استمر في رئاسة اللجنة المعنية بالنظام الأساسي للجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر.

ICRC

مساعدة هؤلاء الأشخاص. فقد تم إرسال ممرضات وأخصائيات اجتماعيات من فرنسا للجزائر للقيام بهذه المهمة. ووافق الهلال الأحمر الجزائري على اقتراح اللجنة الدولية بتولي الصليب الأحمر الفرنسي عملية توزيع المساعدات، مما شكل نموذجا رائعا للتعاون داخل الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. وطالبت الحكومة الفرنسية اللجنة الدولية وبموافقة السلطات الجزائرية بالبحث عن بضع مئات من المدنيين الفرنسيين الذين فقدوا خلال الأشهر التي تلت تحرير الجزائر. إلا أن النتائج التي أسفرت عنها عملية البحث المنظم والممتد عن هؤلاء الأشخاص جاءت، بكل أسف، ضعيفة.

وهناك مشكلة أخرى نشأت أيضا تتعلق بمصير «الحركي»***، إذ شاب المعلومات التي حولهم قلق بالغ. وطلبت اللجنة الدولية مني العودة إلى الجزائر لتولي أنشطة لصالحهم، تتمثل في زيارة أماكن الاحتجاز التي يمكن العثور عليهم فيها. وفي خريف 1962، وبعد عودتي إلى الجزائر، التقيت وزراء في الحكومة الجزائرية، والكولونيل بومدين، الذي كان رئيسا للقوات المسلحة. ومن ناحية أخرى، اعترفت اللجنة الدولية بموجب الإجراءات المعمول بها، بالجمعية الوطنية للهلال الأحمر الجزائري، بعد أن استوفت شروط الاعتراف بها، مما سمح بانضمامها إلى الحركة الدولية للصليب الأحمر.

■ **هل أدى استقلال الجزائر إلى رسم خطوط النهاية لأنشطة اللجنة الدولية في البلاد؟**

بالقطع لا! فبعد أول تموز/يوليو 1962 حافظت اللجنة الدولية على وجود بعثتها في الجزائر، حيث كان يعمل بها أربعة أشخاص، لمواصلة تقديم المساعدات للمدنيين الجزائريين والفرنسيين أو لغيرهم من الجنسيات الأخرى، ممن عانوا من الحرب والاضطرابات التي تلتها. وكان ضمن مهام بعثتها التي أقامت اتصالات رسمية مع الحكومة الجديدة، مساعدة جمعية الهلال الأحمر التي بدأت تعمل في الجزائر.

وبخلاف ذلك، تميزت العلاقات بين الجزائر واللجنة الدولية بالاحترام والثقة المتبادلة. وهناك موقف دعني أحكيه لك، فبعد مرور بضع سنوات على الاستقلال، اختطفت طائرة تابعة لشركة طيران العال الإسرائيلية، وهبطت في الجزائر العاصمة. واتصل الهلال الأحمر الجزائري باللجنة الدولية طالبا قدومي إلى هناك. ذهبت بالفعل، واستقبلني رئيس الجمعية في سرية تامة، وأقمت عنده. وما لبث أن تم تسليمي قادة طائرة العال، دون إعلان، واصطحبتهم خارج الجزائر ■

* مستشار البعثة الإقليمية للجنة الدولية في تونس
** حرب التحرير الوطني في الجزائر
*** مصطلح يطلق على جزائريين تعاونوا مع الفرنسيين أثناء حرب التحرير الوطني

ICRC

طبيب على طريق التحرر الوطني

في عام 1947، انضم الشاب محمد سعيدان إلى «الطريقة العلاوية»، وهي إحدى الطرق الصوفية المنتشرة في الجزائر، وتعلم على عمدائها من خلفاء مؤسسها الشيخ العلاوي، أمثال **الشيخ الحاج** عدة **بن تونس** والشيخ الحاج المهدي بن تونس والشيخ الحاج خالد بن تونس. وعندما بدأت حرب تحرير الجزائر شارك أعضاء الطرق الصوفية فيها، وكان بينهم سعيدان الذي كان لا يزال طالبا في كلية الطب والصيدلة في الجزائر.

■ **الآن، بعد مرور عقود على حرب التحرير الوطني في الجزائر، كيف تراها؟**

حرب التحرير، التي اندلعت في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 1954، لم تكن ضد الشعب الفرنسي، ولكن ضد الظلم الذي وقع على الشعب الجزائري، نتيجة لاستعمار أسقطه في براثن الفقر، وحرمه من حقوقه الأكثر شرعية من خلال تطبيق قانون كريه خاص بالسكان الأصليين. ولذلك لقي غزو الجزائر مقاومة شرسة من جانب الشعب الجزائري الذي قاتل من أجل البقاء.

■ **وما الدور الذي لعبته الطرق الصوفية في هذه المقاومة؟**

الطرق الصوفية المختلفة هي التي قادت المقاومة، مثل الطريقة القادرية والطريقة الرحمانية. وبرزت منها أسماء مثل الأمير عبد القادر والشيخ الحداد والمقراني وبوعمامة وفاطمة نسومر، على سبيل المثال، لتذكرنا بملحمة الحرية والكرامة. ومنذ ذلك الحين، كان من الطبيعي أن تشارك الطريقة العلاوية، التي أنتمي

د. محمد سعيدان: التصوف في مواجهة الاحتلال

ICRC

إليها، في انتفاضة الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 1954. وانخرط الشيخ الحاج المهدي ببسالة في المقاومة مع أتباعه وكنت واحدا منهم. وألقي القبض عليّ في كانون الثاني/ يناير 1957، وخضعت لاستجواب من الشرطة القضائية استمر أسبوعا، جرى احتجازي، بعده، في مكان احتجاز في مستغانم. وللنزول في هذا السجن طقوس، فحراسه يرحبون بالنزيل الجديد بأن يوسعوه ضربا بمجموعة كبيرة من المفاتيح. وبعد ذلك، يُزج به في زنزانة.

■ **من أين جاءتك القوة للتغلب على مثل هذه التجربة؟**

كنت أبلغ من العمر 27 عاما، وفي هذه السن يمكنك استعادة قواك البدنية سريعا. ومن الناحية النفسية، كنت هادئ البال، فلم يكن لدي زوجة وأطفال، أو أي بواعث للقلق. وساعدني إيماني بقضية عادلة ومشروعة على تحمل كل هذه المعاناة. وأتذكر في بداية التزامي بالقضية أن الشيخ الحاج المهدي سألني:«هل أنت مستعد للموت؟»، فهو كعالم نفسي محنك، أراد أن يختبر قدراتي إلى أقصى درجة.

■ **متى بدأت زيارات اللجنة الدولية لكم؟ وكيف كان رد فعلكم؟**

–الزيارات بدأت عام 1957. وعندما زف لنا مدير السجن السيد باليسار خبر رغبة ممثلي اللجنة الدولية في لقاء اثنين منا يمثلان المحتجزين، أصابتنا الدهشة، واعتقدنا للحظة أن ذلك مجرد دعابة سخيفة، لكن جدية ملامحه أقنعتنا. ومع ذلك تساءلنا: «لماذا يهتم الصليب الأحمر بمصيرنا؟». وبعد أن تشاورنا في ما بيننا وقع اختيار المحتجزين على اثنين ليمثلاهم، هما السيد غالي بن علي وأنا.

تعارفنا على مندوبي الصليب الأحمر، واستغرق اللقاء نصف ساعة، عرضنا عليهم جميع مشاكلنا، ومنها الضرب الذي نلقاه عند الوصول، وعمليات الترهيب وتعريض المحتجز للرش بمادة دي.دي. تي مع الكبريتات

عندما بدأت حرب تحرير الجزائر، خاضها الشاب محمد سعيدان، إلى أن أُلقي القبض عليه عام 1957. في هذا الحوار، يتحدث سعيدان، البالغ من العمر الآن 79 عاما، عن ذكرياته في حرب التحرير، وعن زيارات اللجنة الدولية للمحتجزين في ذلك الوقت.

حاوره:
مولاي سيد سعيد بن تونس*

الخانقة...إلخ. وتحدثنا أيضا عن نشأة الصليب الأحمر والمهمة الموكلة إليه، وعن أعمال هنري دونان بالطبع. ثم افترقنا كأصدقاء.

■ **كيف دارت لقاءاتكم مع مندوبي اللجنة الدولية؟**

كانت لقاءات فردية، دون وجود ملحوظ للحراس. وكنا نشعر براحة نفسية في صحبة ممثلي الصليب الأحمر.

* مسؤول الاتصال والإعلام في الطريقة العلاوية

■ **هل كنتم على صلة بأسرتكم أثناء فترة الاحتجاز؟**

استطاعت والدتي زيارتي عدة مرات في السجن، بعد أن حصلت على تصريح بالزيارة من قاضي التحقيق. إلا أنها عجزت عن ذلك بعد إدانتي ونقلي إلى سجن وهران. فهذا السجن هو الجحيم بعينه، ويعتبر الحفاظ فيه على قواك العقلية من قبيل المعجزة.

■ **ماذا تقولون اليوم لمندوبي اللجنة الدولية الذين يزورون محتجزين في 80 بلدا ؟**

أقول لهم «شكرا» للسلوى التي يجلبونها للمحتجزين أثناء الزيارة، وأطلب منهم أن يتحلوا بالصبر والمثابرة لأن مهمتهم ليست سهلة ■

ICRC

ساحل العاج:

وضع إنساني متأزم لآلاف النازحين

يزداد الوضع في ساحل العاج توترا منذ المواجهات التي اندلعت عقب الانتخابات الرئاسية، في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي. وأدت المواجهات إلى سقوط قتلى وجرحى، بالإضافة على نزوح نحو 20 ألف شخص إلى ليبيريا المجاورة، مما يجعل الوضع الإنساني أكثر تعقيدا.

شهدت عدة مدن في ساحل العاج مواجهات عنيفة، عقب الدورة الثانية من الانتخابات الرئاسية التي أجريت في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي. وأدت أعمال العنف إلى سقوط مئات القتلى والجرحى، إضافة إلى نزوح الآلاف. ودعا هذا الوضع المتأزم اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلى مناشدة الأطراف المتنازعة احترام المبادئ الإنسانية الأساسية. وأصدرت اللجنة الدولية بيانا، شددت فيه على وجوب «تجنب زهق الأرواح، واحترام سلامة الأشخاص الجسدية وكرامتهم». وهي طالبت جميع الأطراف، بمن فيهم المتظاهرون، باحترام وحماية الجرحى، والطواقم الطبية، والمنشآت الطبية، والسيارات التي تستعمل كسيارات إسعاف. «فينبغي أن يتمكن العاملون في مجال الصحة ولاسيما متطوعو الصليب الأحمر في ساحل العاج من تقديم الإغاثة بدون أية عوائق». وقالت دومينيك ليانجمي رئيسة البعثة الإقليمية في أبيدجان: «إن احترام متطوعي الصليب الأحمر وأمنهم حين يساعدون الضحايا أمر في غاية الأهمية لكي يتمكن الجرحى والأشخاص المستضعفون من الحصول على الرعاية والمساعدات اللازمة لهم».

تركيبة سكانية معقدة

وتتكون ساحل العاج من نحو 60 قبيلة مختلفة الانتماء واللهجات. وتعتبر الديانة الإسلامية الأكثر انتشارا، تليها المسيحية، ثم الديانات التقليدية، إضافة إلى نسبة من غير الدينيين. ويتحدث سكانها أكثر من 60 لغة. وهم ينقسمون إلى أربع مجموعات رئيسية هي: مجموعة «أكان» التي تعيش في القسم الجنوبي الشرقي من البلاد، ومجموعة «الكرو» في القسم الجنوبي الغربي، ومجموعة «الماندينجو» في المنطقة الشمالية الغربية، ومجموعة «الفولتيج» في المنطقة الشمالية الشرقية. وتتشكل هذه المجموعات الأربع الرئيسية من أناس تجمعوا في الأصل من مجموعات عديدة صغيرة. ويعمل أغلب السكان بالزراعة، ويسكنون قرى صغيرة، لكن عقد الستينيات شهد نزوح كثير من الشباب إلى المدن بحثًا عن العمل بعد أن استقلّت ساحل العاج عن فرنسا في آب/ أغسطس 1960. ويعيش معظم سكان القرى في مجمعات سكنية تتكون من أكواخ، تختلف مساحة كل مجمع عن الآخر بحسب اختلاف عدد أفراد الأسر التي تعيش فيه. وتُبنى الأكواخ من حوائط طينية، لها سقوف من المعدن. وتمتد الأكواخ إلى الكثير من المدن أيضا، في حين يعيش الأثرياء في شقق مبنية على الطراز الحديث.

ICRC

الحرب الأهلية وتوابعها

بعد وفاة هوفيه بواني رئيس ساحل العاج عام 1993، خلفه بحكم الدستور رئيس المجلس الوطني هنري كونان بيديه. وانتخب بيديه رئيسا للبلاد عام 1995. لكن انقلابا عسكريا أطاح بالرئيس بيديه، وأجريت انتخابات رئاسية في 22 تشرين الأول/ أكتوبر عام 2000، أعلن فوز روبير جي بها بنسبة تزيد على 52٪، وحل غباغبو ثانيا بنسبة 42٪. لكن غباغبو رفض نتيجة الانتخابات، وطلب من أنصاره الخروج في مظاهرات، أدت إلى هروب روبير جي إلى دولة بينين المجاورة، ليصبح غباغبو رئيسا.

وشهدت البلاد أعمال عنف، وفي 19 أيلول/ سبتمبر 2002، تصاعدت حالة التوتر في ساحل العاج إلى حرب أهلية، فسيطرت الحركة الوطنية لساحل العاج على الشمال، في ما بقي الجنوب تحت سيطرة غباغبو. ودعت فرنسا الأطراف المتنازعة إلى المصالحة في مدينة ماركوسي الفرنسية، حيث جرى توقيع اتفاقية ماركوسي، التي تنص على أن يحتفظ الرئيس لوران غباغبو بالرئاسة إلى نهاية ولايته عام 2005، وتشكيل حكومة وحدة وطنية يتولى المسلمون فيها رئاسة الوزراء، وزارة الداخلية، ووزارة الدفاع، وتتولى التحضير للانتخابات الرئاسية عام 2005. لكن هذه الاتفاقية انهارت في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004، بسبب رفض أطراف مسلحة نزع السلاح. وكان من المفترض عقد الانتخابات الرئاسية في 2005، لكن تم تأجيلها مرات عديدة بسبب مشكلات نتجت عن الحرب الأهلية وصعوبات تتعلق بالتنظيم والتحضير لها.

وتكرر تأجيل الانتخابات أكثر من مرة، إلى أن أجريت في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي، وأعلن فيها عن فوز الحسن وتارا بالرئاسة، الأمر الذي رفض غباغبو الاعتراف به، مما أعاد البلاد إلى أجواء التوتر، وجدد أعمال العنف، التي أدت إلى سقوط المئات قتلى وجرحى، ونزوح الآلاف.

مساعدة الجرحى ومقابلة الموقوفين

وحسب بوريس ميشال، رئيس عمليات اللجنة الدولية للصليب الأحمر لشمال وشرق أفريقيا، "تولى متطوعو الصليب الأحمر في ساحل العاج، منذ 26 تشرين الثاني/نوفمبر، وبدعم من اللجنة الدولية، توفير العلاج الأولي لأكثر من 580 جريحًا، أُخلي 300 منهم إلى المستشفيات المجاورة". وأضاف ميشال: "وزعنا الدم على المستشفيات الخمسة الرئيسية في أبيدجان، وزودنا تسعة مراكز طبية باثنتي عشرة مجموعة من لوازم التضميد، تؤمن كل واحدة منها معالجة 100 جريح". وبالإضافة إلى توفير العلاج للجرحى وإخلائهم عند اللزوم، «يتركز اهتمام اللجنة الدولية في الوقت الحالي على تحديد مكان وجود الموقوفين والتحقق من المعاملة التي يلقونها، وعلى ضمان احترام كرامة السكان وإعادة الروابط العائلية. ونعمل في الوقت الحالي على التحضير للعمليات التي سننفذها تلبية لهذه الاحتياجات».

وبحسب ميشال «تركز اللجنة الدولية حاليًا على الاحتياجات التي بدأت تظهر بخصوص إعادة الروابط العائلية بين اللاجئين الموجودين في ليبيريا، ومن بينهم أطفال غير مصحوبين، وأقربائهم في ساحل العاج. وتتمثل الأولوية الثانية في تحسين إمكانية حصول هؤلاء اللاجئين على ماء الشرب ونظم الصرف الصحي، لا سيما من خلال إعادة تأهيل الآبار والمراحيض. وما يهم اللجنة الدولية، هو ضمان حصول اللاجئين، الذين استضافهم سكان المناطق النائية، على المساعدات التي يحتاجونها. وأجرت فرقنا العاملة في مونروفيا، بالتنسيق مع الصليب الأحمر الليبيري، عدة عمليات تقييم على طول الحدود، ونحن على اتصال دائم مع المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التي تتولى تسجيل اللاجئين. كما تقوم اللجنة الدولية بتنسيق خطواتها مع الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، الذي يستعد لدعم الجمعيات الوطنية المشاركة في مساعدة هؤلاء اللاجئين، إن اقتضى الأمر ذلك. كما يتم، وفقًا للاحتياجات، تنفيذ أنشطة في البلدان المجاورة لساحل العاج، لا سيما في غينيا» ■

هايتي:
أطفال مصابون بإعاقة يستعيدون الأمل في الحياة

خلّف الزلزال الذي وقع في كانون الثاني/يناير 2010 عددًا كبيرًا من مبتوري الأطراف في هايتي. وإذا أراد هؤلاء أن يعيشوا حياة مستقلة، فعليهم متابعة جلسات إعادة التدريب، والمثابرة على تغيير دوري للأطراف الاصطناعية خاصة بالنسبة للأطفال. وهنا قصص ثلاثة أطفال من هايتي يستعيدون شيئًا فشيئًا الأمل في الحياة بعد معاناتهم الأليمة لمرارة العيش.

Olga Mitchiva *
مسؤولة الاعلام في بعثة اللجنة الدولية في هايتي

الطفلة بلورا في السنة الثانية من عمرها تبدو كدمية صغيرة في ثيابها الظريفة، وهي تعانق برقة راشيل، المرأة الشابة التي تعلو البسمة شفتيها، قائلة: "**هذه أمي**". مشهد مؤثر، ويكاد أن يكون شبه عادي، إلا أنه يجري وسط منظر غريب لحي أزيلت كل معالمه بعد الزلزال. وتخفي بلورا تحت بنطلون "الجينز" الذي ترتديه ساقًا اصطناعية، أما راشيل فليست أمها، بل خالتها.

ماتت والدة بلورا تحت أنقاض منزلها، وهي تضم طفلتها بين ذراعيها. وتروي راشيل أن المبنى التوى تحت قوة الزلزال، وأصبح مطويًا مثل آلة الأكورديون الموسيقية، ولم يكن أحد يتصور أن هناك ناجين. ولكن بعد ثلاثة أيام سمع أحد الجيران صوتًا يشبه مواء قطة صغيرة. وكانت بلورا الناجية الوحيدة بأعجوبة.

راشيل تتذكر جسم الطفلة الذي نهشته الالتهابات، والسباق مع الوقت للحصول على مساعدة طبية. وهي تعول ثلاثة أطفال، وقررت استقبال بلورا في بيتها الجديد المكون من غرفتين متصدعتين يتقاسمهما 15 شخصًا.

أهمية المتابعة في خدمات تقويم الأعضاء

تسلك راشيل، حاملة الطفلة بلورا، مرتين في الأسبوع، طريقا طويلا يقودها إلى أحد مراكز الأطراف الاصطناعية، نادرة الوجود في بورت أو برنس عاصمة هايتي، وهو مركز مؤقت أنشأته في ظروف طارئة منظمتان دوليتان: Healing Hands for Haiti و Handicap International (المنظمة الدولية للمعوقين)، وسوف يتولى الصندوق

أولغا ميتشيفا*

الخاص لصالح المعوقين التابع للجنة الدولية إعادة بنائه وتجهيزه ومساندته خلال الأعوام الخمسة المقبلة.

مثل هذه المتابعة الطبية مهمة، لأن على بلورا أن تتعلم المشي بطرفها الاصطناعي، ويجب تغيير وتكييف هذه الساق الاصطناعية طوال فترة نموها. فبعد مرور عشرة أشهر على بتر ساقها، ها هي المرة الثالثة التي تغير فيها الطفلة الطرف الاصطناعي.

في مركز تركيب الأطراف الاصطناعية، يبدو ألكساندر، الصبي المرح ذو الأعوام الخمسة، كأنه لم يعد يتحمل الانتظار، وهو يجلس بالقرب من والدته وشقيقته الصغيرة. وألكساندر هو مثل بلورا ضحية الزلزال، وبقي على قيد الحياة بعد عدة ساعات قضاها تحت الأنقاض. يقول إن الطرف الاصطناعي كان يؤلمه، ولهذا يتولى الآن الأخصائي التقني إصلاحه.

وفجأة تضيء ملامح الفرح أسارير وجهه حين يرى صبيًا آخر يتنقل بثبات على درج صمم خصيصًا لإعادة التأهيل. فيقول: "**هذا صديقي حتى لو كان أكبر مني سنًا**".

يبلغ جورداني صديق ألكساندر عشرة أعوام. أفقده الزلزال ساقه، لكنه سلبه أمه ومنزله أيضًا. وهو لا يزال يعيش في خيمة بعد عشرة أشهر من حدوث الزلزال. ولم يجهّز بطرف اصطناعي إلا منذ فترة قصيرة، بعد أن لاحظ عاملون إنسانيون حالته في مخيم للنازحين، ولكنه يحاول –مع ذلك، وكيفما تيسر له– أن يلعب بكرة القدم مع الأطفال الآخرين.

أحلام الطفولة

تجري بلورا بعزم وراء لعبتها، بالرغم من العبء الثقيل الذي تمثله ساقها الاصطناعية. وتبدي راشيل تفاؤلها بالمستقبل الذي ينتظر بلورا، بالرغم من صعوبة حياتها اليومية، وتقول وهي مفعمة بالأمل: "**أتمنى بقوة أن تصبح طبيبة أو محامية، أتمنى أن تكون امرأة ذات شخصية قوية، لأن هذا ما نحتاجه في هايتي**".

أما ألكساندر فهو مسحور بالموسيقى والموسيقيين، وجورداني يملك قناعة راسخة بأنه سيكون يومًا ما لاعب كرة قدم كبيرًا.

استعاد الأطفال الثلاثة فرح العيش بعد عشرة أشهر من الزلزال، حتى لو أنهم لا يزالون يرتجفون ذعرًا، حين يسمعون صوت عاصفة، أو مجرد أصداء شاحنة تمر بالقرب منهم. من المؤكد أن الإعاقة الجسدية ستبقى، ولكن إذا ما استمرت إمكانية حصولهم على الخدمات المناسبة لتقويم الأعضاء، سوف تتاح لهم فرص النمو بشكل مستقل، وربما تمكنوا يومًا ما من تحقيق أحلامهم ■

آلاف الهايتيين المعوقين يستفيدون من إعادة بناء عيادة

على مدى الأشهر الاثني عشر القادمة، سيضطلع صندوق اللجنة الدولية الخاص بالمعوقين، بدعم مالي من الصليب الأحمر الأمريكي والصليب الأحمر النرويجي، بإعادة بناء وتجهيز – والمساعدة لاحقًا على الحفاظ على - أحد أهم مرافق إعادة التأهيل البدني الأكثر أهمية في هايتي، والذي تديره مؤسسة "أيادي الشفاء من أجل هايتي الدولية". وسيستفيد من هذا المرفق الآلاف من المعوقين في البلاد.

ومن المقرر إعادة فتح العيادة بحلول نهاية عام 2011. وستشمل مرافق مخصصة للاستشارات الطبية والعلاج الطبيعي وورشة لتصنيع الأطراف الاصطناعية، وأجهزة أخرى للحركة، وغرفا لتدريب موظفي مؤسسة "أيادي الشفاء من أجل هايتي الدولية".

ويقول إريك داوت، المدير التنفيذي لمؤسسة أيادي الشفاء من أجل هايتي الدولية، قبل قليل من التوقيع على اتفاق المشروع بين مؤسسته والصندوق الخاص بالمعوقين: "ما انفكت مساعدة أعداد كبيرة من المعوقين الذين يعيشون في هايتي تشكل تحديا حتى قبل وقوع الزلزال. الكارثة أضافت الآلاف من المرضى المعوقين الجدد، في حين دُمرت مرافقنا الطبية وعيادة الأطراف الاصطناعية والورشة بالكامل". ويستطرد داوت: "يتراوح عدد مبتوري الأطراف الذين هم في حاجة إلى الرعاية المهنية حاليا بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف شخص، ونحن في حاجة ماسة إلى إعادة بناء المرافق لهم".

ومنذ وقوع الزلزال عام 2010، ظل موظفو مؤسسة أيادي الشفاء والمتطوعون يعملون في مرافق مؤقتة، وبالتناوب، في مختلف المستشفيات والمراكز الصحية. ويقول داوت: "إننا نقوم بعمل جبار، ولكن العلاج يتطلب توافر معدات محددة والتزاما طويل الأجل. وعلى سبيل المثال، فقدت الفتاة بلورا، التي تبلغ من العمر عامين، إحدى ساقيها أثناء الزلزال. ولأنها في طور النمو، فهي تحتاج إلى ساق اصطناعية جديدة كل بضعة أشهر، ويجب أن تصنع هذه الساق بشكل فردي في كل مرة".

ويقول أندرياس ليندورف، عضو مجلس إدارة الصندوق الخاص بالمعوقين: "الاحتياجات الإنسانية هائلة، لذلك سيكون المرفق الذي يعاد بناؤه أكبر وأفضل من سابقه. ولن يكون أكثر سعة فحسب، بل سنعمل أيضا على رفع مستوى الخدمات وتحسين أداء العيادة في المدى الطويل".

ويضيف: "ستسهم العيادة بعد فتحها في منح مبتوري الأطراف وغيرهم من المعوقين، قبل الزلزال وبعده، استقلالا أكثر في الحركة، وستمكنهم من استئناف حياتهم بنشاط".

ويمول الصليب الأحمر الأمريكي عملية إعادة الإعمار، التي يُتوقع أن تبلغ تكلفتها 1,8 مليون دولار أمريكي، بينما يمول الصليب الأحمر النرويجي الدعم المادي والتقني والتعليمي الذي سيوفره الصندوق الخاص بالمعوقين لمؤسسة أيادي الشفاء خلال الأعوام الخمسة المقبلة.

ويقول ريكاردو كايفانو، المدير القطري في هايتي للصليب الأحمر الأمريكي: "يسر الصليب الأحمر الأمريكي تمويل إعادة بناء هذا المرفق الهام. وإننا نأمل أن يلبي مركز الأطراف الاصطناعية هذا، من خلال تعاوننا مع مجموعة من الشركاء البارزين، احتياجات جزء مهم من سكان هايتي، ومنسي في غالب الأحيان".

ويقول سفين موليكلايف، رئيس الصليب الأحمر النرويجي ونائب رئيس مجلس إدارة الصندوق الخاص بالمعوقين: "الحياة في هايتي تشكل تحديا، خصوصا إذا كان الشخص يعاني من إعاقة جسدية. وسيتعدى عمل هذا المركز مجرد تزويد المصابين بالأذرع والسيقان، بل سيعمل على مساعدتهم على العيش بكرامة. لذلك فإن عمل هذا المركز مهم ومنقذ للأرواح. ومساعدة الناس على إدارة حياتهم اليومية أمر بالغ الأهمية ونحن سعداء بتقديم الدعم لهذا الجهد الكبير في إعطاء الناس ما يستحقونه من القيمة".

وأنشئت مؤسسة أيادي الشفاء من أجل هايتي الدولية عام 1999، وتعنى بتوفير خدمات وبرامج الطب وإعادة التأهيل لأهالي هايتي، الذين سيتولون إدارتها بأنفسهم.

ويعمل الصندوق الخاص بالمعوقين الذي أسسته اللجنة الدولية عام 1983 على تقديم خدمات إعادة التأهيل البدني في أكثر من 30 بلدا من البلدان ذات الدخل المنخفض، ويهدف إلى توفير المواد وتدريب الخبراء المحليين لتصنيع الأطراف الاصطناعية وأجهزة التنقل الأخرى باستخدام تكنولوجيا خاصة في كثير من الأحيان وذات تكلفة منخفضة. وبدأ الصندوق عمله مع مؤسسة أيادي الشفاء عام 2005 ■

ICRC

الحرب التركية اليونانية، 1923

نقل مجموعة من اللاجئين على متن إحدى السفن في شبه جزيرة سامتلي- داغ بمساعدة جمعية الهلال الأحمر التركي.

الإنسانية في الحرب:

الكاميرا على خط المواجهة

«قيل إن صورة واحدة تساوي ألف كلمة. إلا أن العكس صحيح بالنسبة للمصور الفوتوغرافي الذي يرى أن كلمة واحدة تساوي أحيانا ألف صورة. فكلمات مثل «الإبادة الجماعية» و«المجاعة» و«الحرب» و«الوباء» كانت وراء ميلاد اللجنة الدولية للصليب الأحمر وعشرات المنظمات الإنسانية الأخرى كما دفعت مصورين فوتوغرافيين إلى الإقدام على المخاطر ومكابدة الشدائد. وبالرغم من أنه لم يكن ينظر دوما إلى الصلة التكاملية بين الصورة الوثائقية والعمل الإنساني إلا أن هذه الصلة موجودة في الواقع, فمن الوظائف الأساسية للصورة أن تكون مكملة للعمل الذي تضطلع به الوكالات الإنسانية وداعمة له».

في ما يلي مجموعة من الصور المقتطفة من كتاب يحمل عنوان «الإنسانية في الحرب: الصور على خط المواجهة منذ عام 1860» التي توثق للوضع الإنساني للحروب المتعاقبة كما للحظات من التاريخ المشترك بين اللجنة الدولية والضحايا.

* كتب التعليقات المصاحبة لهذه المجموعة من الصور المصور الفوتوغرافي جيمس ناشتواي

الحرب الأهلية الأمريكية، 1861- 1865

زيمبابوي، 1979

طبيب اللجنة الدولية يفحص طفلا

اليابان، 1952

امرأة تقرأ أول رسالة تتلقاها من زوجها المحتجز في الاتحاد السوفيتي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

الحرب الكورية، 1950

أفراد من الشرطة العسكرية في كوريا الجنوبية يحققون مع أسرى حرب من كوريا الشمالية في «بيونغيانغ».

الحرب الأهلية الأسبانية، 1937

أسر مجتمعة في كنيسة «فيرجن دي لا كابيزا» تستسلم للقوات الجمهورية بعد 150 يوما من الحصار.

حرب فيتنام، فيتنام الجنوبية، 1975

بعد سقوط مدينة «سايغون» في أيدي قوات فيتنام الشمالية، يتلهف أفراد القوات العسكرية الجنوبية وأسرهم على الانتقال من المنطقة جوا.

بيرو، 2004

أفراد الجمعية الوطنية لأسر المفقودين أو المحتجزين أو الرهائن في المناطق المعلن فيها حالة الطوارئ يتظاهرون في «أياكوتشو».
«يجمع المصورون الفوتوغرافيون بين أشياء عدة –فهم مؤرخون وروائيون وفنانون– وإنسانيون أيضا. وبوصفهم صحفيين، فإن من بين مهماتهم الكشف عن الظلم».

الحرب الإيطالية الإثيوبية، 1935-1936

جراحون يجرون عمليات جراحية في مستشفى ميداني.
«من بين الأسباب القليلة التي تبعث على الشجاعة لالتقاط هذه الصور أن أصحابها قدموا للمساعدة على رفع المعاناة عن الضحايا تاركين ديارهم بينما جازفوا بحياتهم وبفقد أطرافهم وغالبوا صعابا غير عادية. ومع ذلك، لم يفقدوا الأمل».

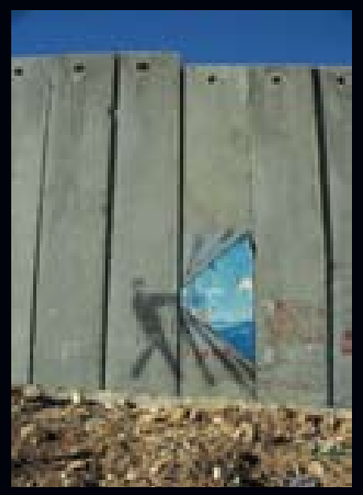

الأراضي المحتلة، 2007

زخرفة على الحاجز المقام على الضفة الغربية.

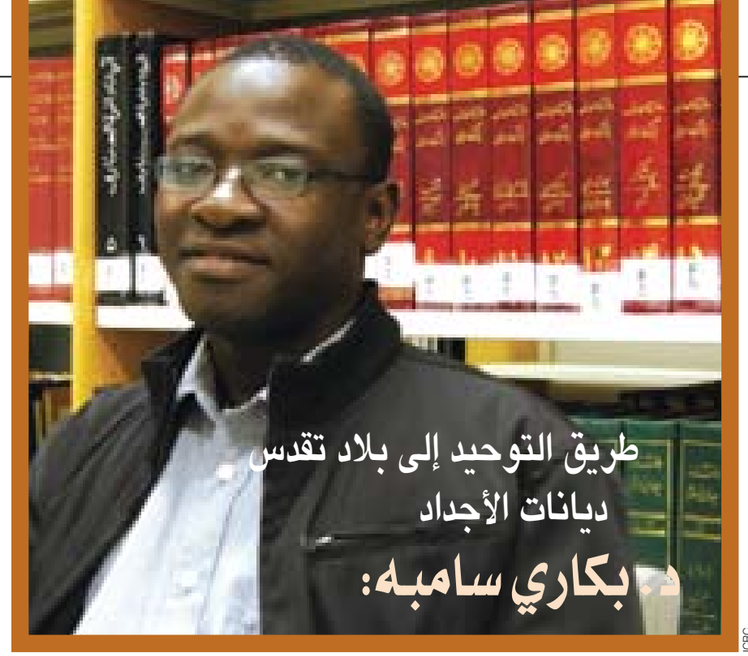

ICRC

الإسلام الأفريقي كمثال لنشر روح التسامح

نجحت الديانة الإسلامية في المواءمة بين تعاليمها والتقاليد الثقافية المميزة لمنطقة إفريقيا–جنوب الصحراء. كيف أدى الامتزاج بين ثقافتين إلى نشوء ثقافة خاصة لا تمحو أسس الثقافتين الأصليتين؟ حول ذلك، حاورت «الإنساني»، في العاصمة السنغالية داكار، الدكتور بكاري سامبه المتخصص في العلوم السياسية والعلاقات العربية – الأفريقية والحركات الإسلامية.

حاوره: **مام إبراهيمة تونكارا***

■ **كيف ترون العلاقة التي تربط بين الإسلام في بلدان المغرب العربي والإسلام في أفريقيا، خاصة جنوب الصحراء؟**

الدين الإسلامي انتشر باعتباره دينا عالميا في العديد من بقاع المعمورة، واتخذ في تطبيقه أشكالا مختلفة، مع الحفاظ، بدافع الحرص، على ما لا يتعارض من الممارسات الاجتماعية المحلية مع تعاليم الدين الحنيف، حتى تلقى دعوته قبولا واسعا عند الناس. وتعتبر منطقة غرب أفريقيا خير مثال على ذلك، حيث بات الدين الإسلامي عنصرا مهما في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، إضافة إلى وجود العديد من الطرق الصوفية التي أصبحت همزة وصل بين الموروثات القديمة والعقيدة الإسلامية، وعملت على شرحها وتفسيرها لثقافات هيمنت عليها، لفترات طويلة، تقاليد وديانات الأجداد. وهكذا، بات التوحيد هو الرابط التاريخي بين أفريقيا والعالم العربي. إلا أن الإسلام في أفريقيا، الذي أطلق عليه «الإسلام الأسود»، لم يقطع «الحبل السُري» الذي يربط بينه وبين «الأمة» أو «المجتمع الإسلامي». وعلينا ألا نغفل الصلات التاريخية الفعلية التي طالما ربطت غرب أفريقيا ببلدان المغرب القريبة، عبر منطقة الساقية الحمراء وجنوب المغرب والجزيرة العربية النائية. ومنذ مطلع القرن الحادي عشر، نسجت بلاد السودان (وترجمتها الحرفية «بلاد السود»)، كما سمّاها المؤرخون العرب مثل «العمري» و«ابن بطوطة»، علاقات مع العرب من خلال التجارة، لاسيما تجارة الذهب والعبيد والصمغ العربي والملح. وربما مهد هذا «التبادل التجاري الصامت» طريق الإسلام إلى دخول غرب أفريقيا عبر جنوب المغرب. فالإسلام انتشر إذًا من خلال التجارة التي ازدهرت أيضا بفضل الانتماء لمذهب واحد، وأصبح الدين من أهم عناصر التقارب بين جانبي الصحراء وقلص الفجوات الاجتماعية والثقافية الكبيرة بين أفريقيا السوداء والعالم العربي. والسؤال المطروح هنا هو ما إذا كانت المؤثرات القادمة من شمال الصحراء ساهمت في تغيير •••

* Mame Ibrahima Tounkara متخصص في الشؤون القانونية في بعثة اللجنة الدولية الإقليمية في داكار

•••

النزاع في اليمن، 1964

محتجزون أثناء إحدى زيارات اللجنة الدولية للصليب الأحمر. «مندوبو اللجنة الدولية، وغيرهم من مندوبي المنظمات الإنسانية الأخرى، يشاركون أولئك الذين يمدون لهم يد العون الآمال نفسها، ويعملون على تحقيقها، رغم ما يتحملونه من مشقات، وما يواجهونه من مخاطر. عندما أنظر إلى الصور المنشورة في هذا الكتاب، لا يسعني إلا التفكير في مدى الفارق الذي أحدثه وجود هؤلاء المندوبين».

أفغانستان، 1998
مدافن عسكرية في مدينة كابول

«عندما يمر الناس بمعاناة، فلا يعني ذلك أنهم أصبحوا بلا كرامة، وعندما يشعرون بالخوف، لا يعني ذلك أنهم يفتقرون إلى الشجاعة، وعندما يتألمون، لا يعني ذلك أنهم فقدوا الأمل. من الصعب على المرء أن يكون شاهدا على المعاناة، وتزداد الصعوبة عندما يكون عليه التركيز عليها ليصنع صورة مؤثرة.

مصير أفريقيا– جنوب الصحراء؟ ألم يكن لها قبل الفتح الإسلامي تاريخها الخاص بها، المرتبط ببيئة محددة الملامح؟

■ **ما الذي يميز الإسلام في جنوب الصحراء ؟**

على عكس الصورة التي يتبناها البعض اليوم من أن الدين هو مصدر للفرقة والخلاف، وأنه وراء نشوب الحرب، دعني أذكر أن كلمة «religion» في اللغة الفرنسية أي «دين» أصلها«religio» في اللغة اللاتينية، وتعني «ما يربط أو يمسك» الأشياء ببعضها البعض، لذا فالدين عامل مؤسس حقيقي للرباط الاجتماعي. فالتعاليم الأساسية للدين الحنيف، الذي يعتبر منذ بداياته دين المستضعفين، تحض على التكافل من خلال الزكاة والصدقة. وترد رسالته الإنسانية في النص القرآني الكريم الذي لا يخاطب المؤمنين فحسب ولكن البشرية جمعاء، عند قوله تعالي: «يا أيها الناس» داعيا إياهم، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، إلى التضامن والتكافل، ومؤكدا على قدسية الإنسان التي تتجلى في تكريم اللّه له. ونحن نعرف جيدا كيف حافظ أول كيان سياسي إسلامي نشأ في المدينة المنورة على روح التعايش بين أصحاب الديانات الثلاث، المسلمين والمسيحيين واليهود، بفضل الدستور الإسلامي الذي كان بمثابة ميثاق اجتماعي يدعو إلى التسامح ونبذ العنف. وعندما بلغت رسالة الإسلام أرض أفريقيا السوداء، كان سكانها مهيئين بالفعل لتبني قيمه، إذ لم تكن غريبة على القيم التي كانت تدعو إليها الموروثات الثقافية التي ألفوها منذ قديم الأزل. واستوعبوا رسالة الإسلام التي هي في الأصل رسالة عالمية، ساعين إلى مواءمتها مع ثقافتهم. وجاءت إعادة تفسير العقيدة الإسلامية لتعطي للثقافات الأفريقية معاني جديدة، وتكون أساسا لروح التكافل التي أضفت على الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء طابعا سلميا بالرغم من الأثر الذي أحدثه ظهور تيارات جديدة تنتمي لسياقات أخرى.

ويُشكل انتشار الطرق الصوفية خير مثال على التكافل الاجتماعي الذي عرفته الثقافات الأفريقية التقليدية من قبل. وهكذا لم يتبق الشيء الكثير على تلبية دعوة الإسلام لكفالة الحماية للأجنبي وقبول الاختلاف والتعايش بين الطوائف الدينية المختلفة في ظل توفر الأرضية الاجتماعية اللازمة التي تتفق والقيم التقليدية. ومن هذا المنطلق، أقول في كثير من الأحيان، إنه لا ينبغي أن يكون للإسلام في أفريقيا دور ثانوي أو هامشي، ولكن عليه أن يوفر لبقية العالم الإسلامي بعض البدائل، لاسيما في المناطق التي تشهد العديد من الأزمات ويسكن العنف أنحاءها، في تعبير صارخ عن هزيمة إرادة السلام. ونحن نرى ذلك اليوم، عبر شبكات الجماعات الدينية التي تنشط في مجال تيسير الحوار والتقارب، والذي من شأنه أن ينعكس بالفائدة على الأزمات الحالية، مثل أزمة دارفور، حيث تقوم هذه الشبكات بدور مهم في تحقيق الوساطة. ويعد هذا شكلا من أشكال المساهمة الإيجابية التي ينبغي أن تأخذها المنظمات الدولية بعين الاعتبار لحل النزاعات وإدارة الأزمات الإنسانية.

■ **كيف تناولت التقاليد الإسلامية في جنوب الصحراء المسائل المتعلقة بمصير أسرى الحروب، مثلا، وغيرهم من الفئات الضعيفة، كالأطفال والنساء والمسنين، في أوقات النزاعات المسلحة؟**

لا تختلف روح الإسلام في جنوب الصحراء ورسالته عن تلك التي يحملها بشكل عام. لكن التقاليد الموروثة قد تضفي عليه صبغة محلية. غير أن الإسلام، بشكل عام، كفل حقوق غير المقاتل، منذ القرن السابع الميلادي، أثناء النزاعات بين سلطة الخلافة الوليدة والقبائل المجاورة، التي لم تكن تعترف به كديانة. وبرغم ذلك، أصدر الخليفة أبو بكر الصديق أمرا لجيوشه بعدم التعرض للأطفال والنساء وكبار السن، وهي الفئات الثلاث التي يندرج تحتها غير المقاتلين والمدنيون، كما نشير إليها في عصرنا الحديث، وهذا يتفق تماما مع المبادئ المشمولة في اتفاقيات جنيف. كما أن الإسلام كان يحظر بشكل قاطع، على مستوى البيئة، تلويث المياه أو قطع الأشجار المثمرة، التي يعتمد عليها السكان في طعامهم. وأعتقد أن هذه الروح من شأنها المساعدة بشكل أفضل على ترسيخ هذه المبادئ التي لا تنتسب إلى الغرب أو الشرق، إذ إنها تحمل معاني إنسانية وعالمية، ولا يمكن لأي دين في أي ثقافة أن يدعو إلى عكسها ■

د. بكاري سامبه في سطور

حاصل على درجتي الدكتوراه في العلوم السياسية والماجستير في اللغات والحضارات الأجنبية. يعمل ضمن فريق بحثي متخصص في منطقتي المتوسط والشرق الأدنى في مركز «بيت المشرق» (Maison de l'Orient) التابع لجامعة ليون الفرنسية. وهو أيضا متخصص في العلوم السياسية والعلاقات العربية - الأفريقية والحركات الإسلامية والشبكات عبر الوطنية، كما يعمل خبيرا لدى المؤسسة الأوروبية للديمقراطية في بروكسيل.

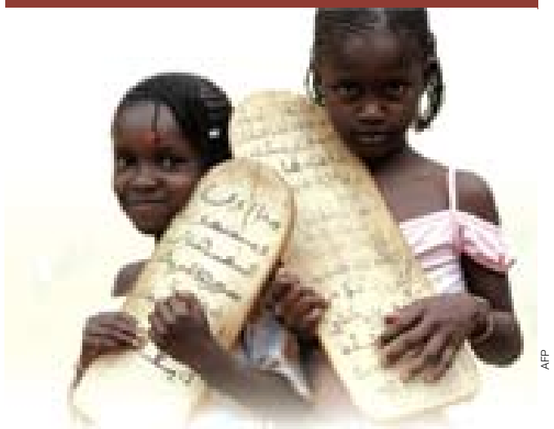

AFP

ياسر الزيات

عن الوحدة والتنوع: أن نبتهج باختلافاتنا

يميل أغلب البشر عبر التاريخ إلى الاعتقاد بأن للإنسان أصلا واحدا، مردّه إلى أب واحد، خرجت منه أم، وتزاوجا، فتكاثرت البشرية من بعدهما، نتاجا لتواصل علاقة التزاوج بين الذكر والأنثى. فالأصل، إذن، في الاعتقاد البشري الراسخ هو الوحدة التي يرمز إليها أب أول خرجت منه الأم الأولى، في الأديان السماوية الثلاثة، أو كائن منقسم على ذاته، في بعض أساطير الخلق. وفي الحالتين، لدينا وحدة بشرية أميبية، لم ترد أن تتكاثر فحسب، بل أرادت أن تتنوع أيضا. فلو كان التكاثر هو الغاية وحده، لاكتفت هذه الوحدة الأميبية المفترضة بسلسلة من الانقسامات الذاتية التي يمكن أن تحقق هذه الغاية، ولكن الأرجح أن التنوع كان غاية أخرى، لذلك كان الذكر وكانت الأنثى، فكان، بذلك، نزوع البشرية الأزلي إلى التنوع، وحنينها الأبدي إلى الوحدة. وربما كان هذا الجدل هو الذي جعل "التنوع داخل الوحدة" أقرب إلى كونه قانونا طبيعيا يقود مسيرة البشرية، عبر تاريخها.

بدأ الإنسان تاريخه ملتقطا للحب والثمر، ثم عرف الصيد، فعرف به أول تحرك عن مركزه سعيا وراء رزقه. وعندما تطورت مهاراته في الصيد، أصبحت لديه وفرة من الحيوانات، فعاد ببعضها إلى مستقر مجموعته البشرية من النساء والأطفال، قبل أن يستأنف الرحيل سعيا وراء صيد جديد. والأرجح أن المرأة راقبت سلوك الحيوانات إلى أن خبرته، فاستأنستها. والأرجح، كذلك، أن استقرار المرأة، في انتظار الرجل المرتحل دائما، ساعدها على اكتشاف الزراعة، من خلال مراقبة الكيفية التي تنمو بها البذور بعد سقوط المطر، فحاولت أن تحاكي الطبيعة، وأن تتخير ما تزرعه من بذور. وبالتوصل إلى استئناس الحيوانات، وباكتشاف الزراعة، عرفت البشرية أول تجمعات بشرية مستقرة، ولكنها بذلك كانت قد عرفت "الملكية" أيضا. وربما كان هذا هو الوقت الذي ظهر فيه أول إنسان قال: "هذه أرضي".

ويفترض وجود الملكية نشوء قوة تحميها، وهو يفترض بذلك تفاوتا في القوى، لأنه لابد من غالب ومغلوب في معركة السعي إلى الامتلاك أو إلى الدفاع عن الملكية. وربما نشأت،من هنا، فكرة الهجرة، فالمغلوب عليه أن يرتحل عن أرض الغالب، بحثا عن أرض جديدة يفرض عليها سطوته. وربما قادت الهجرة مجموعات بشرية إلى الابتعاد عن أصولها، والاعتزال عنها، فنشأت بذلك اللغات التي تعددت وتنوعت أصواتها بتعدد وتنوع ما ترمز إليه، واختلفت عن الأصوات الأصلية باختلاف البيئة المحيطة. وقد تكون الهجرة سببا -أيضا– لتعدد الأعراق، إذ يميل الإنسان إلى التكيف مع البيئة والمناخ المحيطين، فتختلف ملامحه وفقا لاختلافهما، وتتوارث الأجيال هذا الاختلاف، الذي يصبح مع الوقت طابعا مميزا لمجموعة بشرية عن أخرى. وساعدت صعوبة الاتصالات والمواصلات، في الأزمنة القديمة، على رسوخ معتقدات كل جماعة بشرية عن نفسها، وعن العالم، وكان من الصعب أن يتغير هذا سريعا، مع تحول الإنسانية من وحدة الأسرة إلى وحدة القبيلة، ثم إلى وحدة الدولة.

ظل الصراع على الملكية هو المحرك الأساسي للنزاعات بين البشر، لكنه اتخذ صبغة عرقية أحيانا، واتخذ صبغة دينية أو طائفية في أحيان أخرى، لتبرير ذلك، أو للحشد من أجله. على أن الإنسان الذي بدأ رحيله مستوطنا، تحول –مع ظهور الدولة، وتنامي رغبات الحكام في التوسع– إلى مستعمر، فوقعت جماعات بشرية تحت حكم جماعات أخرى قد تخالفها في العرق أو الدين أو الطائفة أو اللغة. وكان على هذه الجماعات أن تنتفض –من حين إلى آخر– سعيا على التحرر، أو إلى نيل المزيد من حقوقها. وربما ووجهت تلك الانتفاضات بالقوة والقمع، للحفاظ على اتساع الدولة ووحدتها. ولكن ذلك، على ما يبدو، كان صعبا في الكثير من الأحيان، إذ تصاب الدول بالشيخوخة مع الوقت، وتفشل في الحفاظ على وحدتها.

من هنا ربما، ينطلق ابن خلدون في مقدمته ●●●

بابلو بيكاسو

الشهيرة إلى القول بأن «الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أن تستحكم فيها دولة»، وهو يرى أن «السبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأي منها وهوًى عصبية تمانع دونها، فيكثر الانتفاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت، وإن كانت ذات عصبية؛ لأن كل عصبية ممن تحتها تظن في نفسها منعة وقوة». ويضرب مثالا على ذلك بأفريقيا، «منذ أول الإسلام إلى هذا العهد» –أي عهد ابن خلدون– فيقول: «إن ساكني هذه الأوطان أهل قبائل وعصبيات، فلم يغنِ فيهم الغلب الأول، الذي كان لابن أبي السرح عليهم وعلى الفرنجة، شيئا. وعادوا بعد ذلك إلى الثورة والردة مرة أخرى، وعظُم القتل من المسلمين فيهم. ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة». ويوضح ابن خلدون أن «هذا معنى ما يُنقل عن عمر بن الخطاب من أن إفريقيا مفرقة لقلوب أهلها، إشارة إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد». وفي المقابل، يرى ابن خلدون أن «الأوطان الخالية من العصبيات، يسهل تمهيد الدولة فيها، ويكون سلطانها وازعا لقلة الهرج والانتفاض، ولا تحتاج الدولة فيها على كثير من العصبية»، ويضرب على ذلك مثلا مصر والشام إلى عهده.

سادت أفكار ابن خلدون، لزمن طويل بوصفه مؤسس علم الاجتماع، وواحدا من أهم فلاسفة التاريخ، القادرين على استقراء الماضي والخلوص منه بما كان يبدو –في رأي البعض– قوانين اجتماعية مسلما بها. ولا يزال ابن خلدون قابلا للقراءة، لكن التطور الذي شهدته البشرية في القرن العشرين، وفي العقد الأخير منه على وجه الخصوص، يفرض أن تتحول هذه القراءة إلى قراءة نقدية، وخاصة ما يتعلق من آرائه بفكرة التعدد الذي يفترض أن من شأنه إضعاف الدولة.

في الأعوام المائة الأخيرة، فاق حجم التطور الذي أنجزته البشرية ما كانت أنجزته طوال تاريخها كله، وحدثت ثورة حقيقية في المواصلات والاتصالات، جعلت من العالم قرية كونية صغيرة، قبل أن تلحق بها ثورة تكنولوجية جعلت منه حبة رمل على شاطئ كوني كبير، يفترض أن يعيش عليها، أو بداخلها، كل البشر. وعندما نظرت ذات مرة إلى خارطة البروج السماوية، تساءلت: «أين بيتي؟». وكان مضحكا ومدهشا في آن ألا أرى كرتنا الأرضية ذاتها. وعجبت من حجم أسلحة الدمار التي تحتويها حبة الرمل تلك، التي أعيش داخلها مع بقية إخوتي المتحاربين من مختلف الأعراق والأديان. وأدركت أهمية أن يبحث البشر عن صيغة مشتركة للتعايش، تعطي حقوقا متساوية وفرص عيش متكافئة للجميع. الحل –إذن– هو التكامل بين الحضارات، وصولا إلى ثقافة إنسانية واحدة، تستوعب التنوع داخلها وتذكيه، وتنطلق منه نحو عالم يسوده السلام، وتحكمه –في الأساس– قيمة الأخوة البشرية.

ولكن، ماذا نفعل بثقافتنا الموروثة عن خطورة التنوع؟ الإجابة: علينا أن نسعى إلى تغييرها.

قد يتطلب الأمر وقتا طويلا، لكنه ممكن. فالبشر لم يعودوا منعزلين كما كانوا في الماضي، وباتت معرفة بعضهم بالبعض الآخر أكثر من أي وقت مضى في تاريخهم.

إن شيئا يتغير في مسار تفكير البشرية، وأسسا جديدة توضع في الاتجاه نحو ثقافة إنسانية واحدة، لكنها متعددة، في الوقت نفسه. وهذا ما أكد عليه تقرير التنمية البشرية لعام 2004، الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، وهو تقرير يرسم طريقا إلى عالم جديد. ويؤكد التقرير على أن «الحرية الثقافية جزء حيوي من التنمية البشرية، لأن تمكن الإنسان من اختيار هويته دون خسارة احترام الآخرين، أو التعرض للاستبعاد من خيارات أخرى، شرط هام للعيش حياة كاملة. كما أن الاعتراف الأفضل بالهويات سيؤدي إلى تنوع أكبر في المجتمع يثري حياة الناس. فالناس يريدون ممارسة دينهم علانية، والتكلم بلغتهم، والاحتفال بتراثهم العرقي أو الديني، دون خوف من تهكم، أو عقاب، أو انتقاص لفرصهم المواتية. والناس يريدون المشاركة في المجتمع، دون الاضطرار إلى التخلي عن جذورهم الثقافية المختارة. إنها فكرة بسيطة، لكنها مثار قلق عميق». وفيما نرى، فإن القلق ينبع من أن العالم يتغير، إن لم يكن قد تغير بالفعل. فالكرة الأرضية، التي كانت هائلة الحجم، قبل حوالي مائة عام، جعلت منها ثورة الاتصالات حبة رمل صغير، كما ذكرت، ويجب أن نقبل –جميعنا– العيش فوقها أو داخلها، وأن تجد الإنسانية صيغة مشتركة، ومستديمة، وقابلة للتطور، لحياة تقبل بتعدد الثقافات وتنوعها، كأساس يساعد على تطور البشرية، لا صراعها وتناحرها. «يجب أن نبتهج باختلافاتنا»، على حد تعبير رئيس الأساقفة في جنوب أفريقيا ديزموند توتو ■

AFP

امرأة طارقية تعزف على آلة الإمزاد التقليدية

نساء الطوارق..
مدرسة لتعليم روح الصحراء

AFP

فتيحة الشرع*

هناك في صحراء الطوارق حيث توجد أقدم الآثار والأحافير، التي يعود بعضها إلى أكثر من 500 مليون عام، يستلهم الطوارق تراثهم من وحي الطبيعة التي ولدوا تحت شجرها وفوق رملها، حيث تغطيهم النجوم ليلا ويجذبهم الترحال نهارا. هناك تتحول نساء الطوارق إلى مدرسة حية لتعليم الأجيال الجديدة روح الصحراء، في محاولة للصمود أمام زحف الحداثة.

في بيتها ذي الطراز الحديث، استقبلتنا الطارقية زمزم. كانت زمزم تقيم في منطقة «أنكوف» الشعبية، وهي أحد أحياء ولاية تمنراست التي تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي2000 كيلو متر في الجنوب الشرقي. وتبلغ مساحة تمنراست 558 ألف كيلو متر مربع، على ارتفاع 1400 متر عن سطح البحر، ما يجعل مناخها معتدلا. وتوجد فيها أعلى قمة جبلية في الجزائر، هي قمة الأتاكور البالغ ارتفاعها 3003 أمتار. وعندما شيدت الحكومة بيوتا حديثة في إطار برامج تنمية الجنوب الكبير، انتقلت زمزم مع زوجها وأولادها إلى الأحياء الجديدة، أملا في تحسين ظروف معيشتها وأسرتها، تاركة خلفها عائلتها الكبيرة.

ولم تكن زمزم تتوقع ما حدث لها. فالمدينة سلبت منها رحابة الصحراء التي احتضنتها، وأصبحت الثقافة التي اعتادتها منحصرة في ما تسمعه من موسيقى وأغان. وحتى هذه تأثرت بالمدينة، وبدأت تسكنها شوائب وتهجنها، فضيقت فرصها في الانتشار والانتقال إلى الأجيال الجديدة، حتى بدأت هذه الأجيال تنسلخ عن عاداتها شيئا فشيئا، بفعل زحف الحداثة.

تتذكر زمزم صورة أمها لالا خديجة، إحدى العازفات القدامى لـ«الإمزاد»، تفترش الأرض، يغطيها رداؤها البنفسجي الداكن المسمى «التسغنس»، والمصبوغ بمادة النيلة التي تستورد من الحدود الجنوبية المجاورة. لساعات تظل لالا خديجة غارقة في العزف على آلة الإمزاد، وهي تردد كلمات تعلو وتنخفض في استرسال حزين يحمله صدى الصحراء مترامية الأطراف، إذ تحتل تمنراست ربع مساحة الجزائر تقريبا. وتجلس الفرق النسائية، إلى اليوم، على شكل نصف دائرة تحت خيمة أو تحت زرقة السماء، تتوسطهن العجوز الكبيرة تعزف الإمزاد، وهن يرددن خلفها ويصفقن ثم يطلقن زغاريد حادة.

والإمزاد آلة جميلة جدا، تشبه في شكلها تماما آلة العود العربية، وتصلح تحفة تزيينية. وهي تصنع محليا من الكوسة، «تزنوت» باللغة الأمازيغية، يثبت عليها جلد الماعز المدبوغ جيدا وقضيب من الخشب تلف حوله الأوتار المصنوعة من شعر الخيل «إمزدن نيس» ، وتصدر صوتا شجيا يساعد على الاسترخاء والتأمل.

كانت لالا خديجة تحكي في أغانيها أساطير الطوارق التي تصف كبرياءهم وحبهم للمغامرة وارتباطهم المشيمي بالطبيعة من ماء وكلأ وشجر. ويعيش الطوارق الجزائريون في ولايتي تمنراست وإليزي الواقعتين في أقصى الجنوب الشرقي الجزائري، على الحدود مع مالي والنيجر وشمال جبال التاسلي. وتسمى قبائل الطوارق في هذه الجهة «الأزقر» ، كما يوجد بعض الطوارق في الجنوب الغربي في منطقة توات بالصحراء الجزائرية، على بعد 1500كلم جنوب غربي الجزائر العاصمة.

وتعتبر المرأة الطارقية أهم حارس وحافظ لتراث قبائل الطوارق، الذي يتميز بالشفوية المتوارثة عبر الذاكرة الجماعية، وهي ثقافة تحتاج للتدوين والتوثيق أكثر من ذي قبل لحمايتها من السرقة والاندثار. وفي هذا السياق يأمل الكثيرون في الدور المنوط بـ«دار الإمزاد» التي تقرر بناؤها خلال الملتقى الدولي الثاني حول الإمزاد هذا العام، في منطقة الأسكرام ذات الشهرة السياحية العالمية، بحيث تستدرك النقص الكبير الذي تعاني منه عملية توثيق الموروث الثقافي للمنطقة، خصوصا ما يتعلق منه بالفن النسائي الذي يتأرجح بين مقومات الأصالة ومتطلبات الحداثة.

في هذه الأرض فقط؛ التي يصفها الروائي الليبي إبراهيم الكوني بأنها مهد الإنسانية الأولى، ينبت شجر الفستق التاسلي والأكاسيا وتعيش حيوانات مثل الفهد والجمل والغزال وحتى الأيل، بالإضافة إلى أصناف كثيرة من الزواحف والأفاعي، وهي أنواع مهددة بالانقراض.

وعلى هذه الأرض يوجد أقدم الآثار التي عثر عليها إلى اليوم، وهي تعود إلى أكثر من ثلاثة مليارات عام. يقول مدير الحظيرة (المحمية) الوطنية للتاسلي والمحافظ الرئيسي على التراث الثقافي صالح أمقران: «حظيرة التاسلي مساحتها 80 ألف كيلو متر مربع، وهي بالنسبة لزائريها متحف مفتوح. صنفتها منظمة اليونيسكو تراثا عالميا مشتركا منذ عام 1982، وهي الوحيدة عربيا على قائمة عالمية تضم 24 موقعا بالتصنيف نفسه الذي يخضع لمقاييس صارمة، تشرف عليها مؤسسات عالمية مختصة في التراث الطبيعي والثقافي، تدرس بعناية كل ملفات الترشيح، ثم تمنح الموافقة إذا توافرت القيمة العالمية المضافة للموقع».

في تكامل وتداخل بين التراث الطبيعي والتراث الثقافي، تصنع حياة الطوارق وسط هذه المحميات تميّزًا عالميا، ما يستقطب إليها أعدادا كبيرة من السائحين، لا سيّما من أوروبا الغربية والولايات المتحدة وكندا، وحتى دول الخليج. فهم يأتون لمشاهدة لوحة إلهية تعج بالحياة والسحر،تغزلها تكوينات جيولوجية، ورسوبية، ورملية، وحيوانات نادرة، ونباتات محلية كالسرو التاسلي. كما يسمح لهم المكان بالسفر عبر مختلف مراحل نشأة الحياة وتطورها بدءًا من مرحلة ما قبل التاريخ، ثم نشأة الفن الصخري، وصولا إلى العصر الحديث.

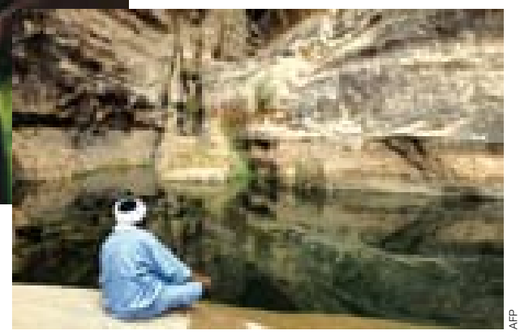

AFP

محميّة التاسلي التي صنفتها «اليونسكو» تراثا إنسانيًا

* صحافية جزائرية

AFP

ويقول مدير الديوان الوطني لحظيرة(محمية) الأهقار الوطنية، المختص في علم الآثار، والمشرف على التنوع البيئي في المحمية إغيل فريد إحريز: «تصنيف هذه المناطق ضمن التراث العالمي بشقيه المادي واللامادي يساعد على حماية حياة الطوارق وتحسين ظروف معيشتهم».

وحدهم فقط العارفون بلغة «التيفيناغ» هم القادرون على الغوص في ثقافة هؤلاء البدو الذين سادوا الصحراء وما زالوا يصارعون من أجل ذلك. وتتكون أبجدية «التيفيناغ» من 22 حرفا يشكل لغة الطوارق المسماة التهاشاق، وهي في نظر باحثين «أبجدية لم يطلها التغيير، يرجع وجودها إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد».

ولعل وجود متحف تابع للمحمية الثقافية في ولاية تمنراست هو بمثابة شاهد على حضارة وجامع لعناصرها، وهو أيضا مقدمة تلخص للزائر أهم ما يوجد في المنطقة من ثروات وتراث ثقافي وطبيعي. بين أرجاء المتحف تتعرف على آثار التذبذبات البركانية التي شهدتها المنطقة قبل حوالي 500 مليون عام، كما تشاهد أحافير لحيتان وبقايا حيوانات ضخمةربما لم يكشف العلم عن أنواع بعضها إلى اليوم. وهناك أيضا فك لفرس البحر يشهد على أن زمنا مضى كانت فيه المحيطات تغطي هذه الصحارى.

يروي لنا الباحث الطارقي في أبجدية لغة التيفيناغ محمد حمزة كيف أن تراث الطوارق مرتبط ارتباطا وثيقا بالبيئة الصحراوية، «وهو قراءة في ملامحها وسرد لواقعها منذ القدم. وتعكس مفردات هذا التراث حكمة الطوارق في التعامل مع الطبيعة بكل مواردها بما فيها النبات والحيوان. وهذه الثقافة هي نسيج بين الواقعي والأسطوري، لكنها تصب في غاية واحدة، هي الرفق بالبيئة المحيطة والاعتزاز بقيم السلم والكرم»، حسب قوله.

فتيات من قبائل الطوارق يرتدين أزياءهن التقليدية في مهرجان لإحياء التراث

ويعزو دارسون لتطور هذا النوع من المجتمعات المحلية التدهور الحاصل في الوسط الطبيعي إلى «اختفاء بعض الأساطير التي كانت تشكل الإطار الضابط والحارس الأمين للصحراء، وكذلك انحصار المهارات المحلية والمعارف في الجيل الماضي الآخذ في التناقص دون انتقالها إلى الجيل الجديد». وفي الإطار نفسه، لا يخفي الشاب الطارقي علي كرزيكا، الحاصل على الليسانس في علم الآثار، قلقه مما يصفه بـ«تهدم البنية الاجتماعية لقبائل الصحراء الكبرى بسبب الضغوط الاقتصادية والمناخية».

على أنغام «الإمزاد» تعود زمزم إلى الغناء، مستعيدة أساطير روتها جدتها لالا خديجة. أنغام وكلمات وأساطير توجز روح الصحراء، وتحفر التراث الطارقي في أرواح أجيال جديدة يحاول زحف الحداثة أن ينتزعها من جذورها. لكن عزف وغناء زمزم، وغيرها من الطارقيات، يجعل هذا التراث أحفورة جديدة تتحدى الزمن. فالمرأة الطارقية ليست فقط الأكثر إلماما بلغة التيفيناغ، مقارنة بالرجل، لكنها أيضا من يعلم الصغار، بنين وبنات، الشعر والقراءة والعزف على «الإمزاد» ■

AFP

جامع كلحسن*

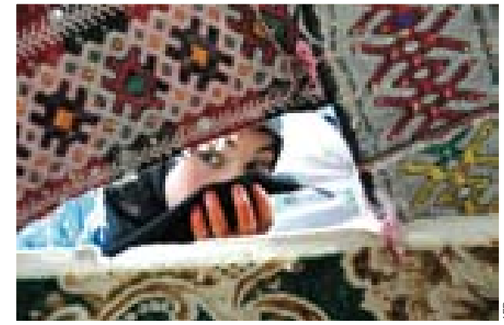

AFP

AFP

إحياء الأمازيغية في المغرب

خطوات مهمة على طريق الدمج في المناهج التعليمية والإعلام

احتلت اللغة والثقافة الأمازيغيتان حيزا مهما من النقاش العام المغربي منذ حوالي نصف قرن. وظلت قضايا الثقافة والهوية، عموما، حاضرة بقوة في اهتمامات الطبقة السياسية والجهات الرسمية والمجتمع المدني في معظم دول المغرب العربي، ومنها المملكة المغربية، منذ الاستقلال. ومر النقاش بمحطات مختلفة اتسمت بالكثير من الانفعال والاستغلال السياسي، أحيانا، وغابت عنها المعالجة العلمية الموضوعية، في أغلب الأحيان. لكن منتصف التسعينيات، من القرن الماضي، شهد تحولا في التعامل مع القضية الأمازيغية في المملكة المغربية.

* كاتب وصحافي مغربي

تشير معظم الدراسات التاريخية إلى أن الأمازيغ استوطنوا منطقة شمال إفريقيا منذ القدم، على الأقل قبل نشوء وتوسع الإمبراطورية الرومانية التي دخلوا معها في حروب للسيطرة على السواحل الشمالية لإفريقيا. ورغم أن أرض المغرب استقبلت العديد من الهجرات: (العرب من شبه الجزيرة العربية، والأندلسيين بعد سقوط غرناطة، والأفارقة بفعل الأنشطة التجارية)، بالرغم من كل ذلك، بقي الأمازيغ محافظين على مقومات هويتهم من لغة وثقافة وعادات وطقوس مختلفة.

على مستوى اللغة، يتحدث الأمازيغ في المغرب عددا من اللهجات، يمكن تجميعها في ثلاث مجموعات كبرى، هي: تريفيت في منطقة الريف شمال المغرب من طنجة غربا إلى شرق البلاد، وتامازيغت في الوسط والمناطق الجبلية للأطلس المتوسط والجنوب الشرقي، وتشلحيت في الجنوب والجنوب الغربي، أي في منطقة سوس والأطلس الكبير الغربي والأطلس الصغير. ويعيش الأمازيغ بنسب كبيرة في المدن الكبرى بفعل الهجرة من مناطقهم الأصلية للعمل أو الدراسة. كما هاجر مئات الآلاف منهم خارج البلاد للعمل، حتى أنهم يشكلون الجزء الأكبر من الجالية المغربية المقيمة في أوروبا، خصوصا في فرنسا وهولندا وبلجيكا وألمانيا.

وفي غياب أرقام دقيقة عن عدد الأمازيغ ونسبتهم من مجموع سكان المغرب، يبقى التضارب وعدم الدقة هو السمة الغالبة على الأرقام المتوافرة، وإن كان بعض الدراسات حصر عددهم بين 40 و60٪ من المغاربة. وكانت هذه النسب موضع جدل، طيلة سنوات، بين من يعتبرها قريبة من الواقع ومن يقول عكس ذلك. لكن المؤكد هو أن الأمازيغ لم ينعزلوا، بل تعايشوا مع الأقوام الأخرى وسادت بينهم علاقات مصاهرة، حتى أنه من الصعب الآن الحديث بشكل قطعي عن مغربي أمازيغي خالص أو عربي خالص.

قيم إنسانية في الفن والأدب الأمازيغيين

أنتج هذا التعايش موروثا أمازيغيا غنيا من أشكال التعبير في الفن والشعر والحكي. ولا تزال الذاكرة الشعبية تحتفظ بنصوص متواترة، هي عبارة عن قصائد تتغنى بمعاني الحب والتسامح والقيم الكونية النبيلة. كما تحفل الأمثال الشعبية والمحكيات بصور جميلة تعبر عن القيم نفسها. ويبقى الشعر أبرز أشكال التعبير الأدبي والفني لدى الأمازيغ. ومن خصوصيات شعرائهم أنهم ينظمون قصائدهم وينشدونها في الوقت نفسه.

أما أهل الغناء، فاشتهرت منهم فئة الروايس (مفردها رايس) بمنطقة سوس (جنوبا). والرايس لا يعزف على القيثارة أو على العود أو الكمان كما هو شائع في ثقافات أخرى، ولكنه يستعمل آلة الرباب الوترية المميزة. واشتهر من هؤلاء الروايس الحاج بلعيد (توفي 1946م) والحسين الباز وفاطمة تبعمرانت وغيرهم. وفي السبعينيات من القرن الماضي، ظهرت مجموعات موسيقية حملت مشعل هؤلاء الروايس، وطورت أغانيهم، وأبدعت أشكالا جديدة من الموسيقى تتغنى بقيم التسامح والسلام والمساواة والقضايا الإنسانية العادلة. وتبقى مجموعة أزنزارن (الأشعة باللغة الأمازيغية) إحدى أبرز هذه المجموعات.

رد الاعتبار للثقافة الأمازيغية

ساهمت مجموعة من العوامل في إحداث تحول إيجابي في التعامل مع ملف الأمازيغية خلال السنوات الأخيرة، إذ تكونت لدى الدولة والناشطين السياسيين والحقوقيين ومؤسسات المجتمع المدني قناعة شبه مشتركة تعتبر الأمازيغية مكونا من مكونات الهوية المغربية إلى جانب المكونات الأخرى ذات الروافد العربية والإسلامية واليهودية والإفريقية. فمن جهة، أقرت الدولة في شخص الملك محمد السادس، (خطاب 17 أكتوبر/ تشرين الأول2001 في بلدة أجدير الأمازيغية وسط المغرب)، تصورا جديدا بخصوص الهوية المغربية يعتبر النهوض بالثقافة واللغة الأمازيغيتين مسؤولية جماعية، وذلك من خلال اعتبار الأمازيغية ملكا لكل المغاربة. وفي الخطاب نفسه، تم الإعلان عن تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ليعد الأرضية الضرورية لدمج اللغة الأمازيغية في مؤسسات التعليم ووسائل الإعلام العامة. ويضم المعهد فريقا من الباحثين في علم الألسن وعلوم الاجتماع والتاريخ والفنون.

ومن جهتها، رحبت الأحزاب السياسية والجمعيات العاملة في المجال الثقافي الأمازيغي بالخطوات الجديدة، وعبرت عن استعدادها لإنجاحها، بل إنه لا يكاد برنامج الأحزاب •••

◆ **بعض الدراسات يقدّر عدد الأمازيغ في المغرب بين 40٪ و 60٪ من السكان**

◆ **الدولة اعتبرت الأمازيغية أحد مكونات الهويّة المغربية**

السياسية يخلو في فترات الانتخابات من فصل يدعو إلى النهوض باللغة والثقافة الأمازيغيتين.

دمج اللغة الأمازيغية في التعليم

في عام 2003 وضعت وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر، والمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مخططا استراتيجيا لدمج اللغة الأمازيغية في مستويات التعليم الابتدائي، بهدف تعميم التجربة بحلول عام 2010. ونُظمت عدة دورات تدريبية للمدرسين، وتم إعداد الكتب المدرسية، وانطلقت التجربة في عدد محدود من المدارس بمعدل ست ساعات أسبوعيا. وتشير المعطيات الرسمية لعام 2009 إلى أن اللغة الأمازيغية يتم تدريسها في جميع مستويات التعليم الابتدائي، لكن هذه الخطوة لم تشمل جميع المدارس. ووصل عدد المدارس التي تدرج الأمازيغية في برامجها التعليمية إلى 4300 مدرسة، وهي توفر حصصا لـ 516 ألف متعلم على مستوى التعليم الابتدائي، و520 طالبا على مستوى التعليم العالي. ويشرف على العملية التعليمية في المستوى الابتدائي 12 ألف مدرس.

لكن الجميع يقر ببعض الصعوبات التي تعترض تدريس الأمازيغية، ومن أبرزها نقص الكفاءات البشرية اللازمة، وضعف الموارد المالية المعتمدة، حسب ما ورد على لسان الدكتور أحمد بوكوس الأمين العام للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، في حوار أجرته معه صحيفة الشرق الأوسط السعودية الصادرة باللغة العربية من لندن.

وفي مجال النهوض باللغة الأمازيغية تمكن معهد الثقافة الأمازيغية من وضع «لغة معيارية» تجمع بين اللهجات الأمازيغية الثلاث السائدة في المغرب. وتتكون الأبجدية المعروفة بحرف تيفيناغ من 33 حرفا طور المعهد منه ثمانية خطوط مطبوعة ونال اعترافا دوليا به من المنظمة الدولية الخاصة بتنميط الخطوط.

AFP

الأمازيغية في وسائل الإعلام

ومن المشاريع الأخرى التي انطلقت ورش دمج اللغة والثقافة الأمازيغيتين في وسائل الإعلام، خاصة السمعية البصرية. وهكذا تمت الزيادة في الفترات المخصصة للبرامج والأعمال الدرامية والأفلام الوثائقية والأخبار في القناتين الرسميتين: الأولى (مقرها العاصمة الرباط)، والثانية (مقرها الدار البيضاء، 80 كيلومترا جنوب العاصمة). غير أن أبرز حدث إعلامي في هذا المجال تمثل في إنشاء القناة الأمازيغية، التي بدأت بث برامجها بالأمازيغية منذ الربيع الماضي. ورغم صعوبات البداية، إلا أن القناة بدأت تجد لها موطئ قدم في المشهد الإعلامي المغربي، من خلال برامج ومنوعات تستعمل اللهجات الثلاث ولغة موحدة، في بعض الأحيان، مستفيدة من المعجم المتخصص في مجال الإعلام الذي أعده معهد الثقافة الأمازيغية. ويبقى من السابق لأوانه تقييم هذه التجربة بشكل موضوعي في انتظار أن تستكمل سنتها الأولى على الأقل. أما الصعوبات الآنية فهي مرتبطة أساسا بنقص التدريب ومحدودية الإنتاج التلفزيوني باللغة الأمازيغية.

10 أعوام على خطاب أجدير

في أكتوبر/ تشرين الأول من هذه السنة، مرت عشرة أعوام على خطاب ملك المغرب في بلدة أجدير النائية. هذا الخطاب يعتبره النشطاء الأمازيغيون والمتتبعون للوضع في المغرب بمثابة البداية الفعلية للتعامل بشكل جدي مع القضية الأمازيغية. وبعد مرور عقد من الزمن، يمكن القول إن خطوات كبيرة تم قطعها في سبيل إعادة الاعتبار للغة والثقافة الأمازيغيتين خصوصا في مجالات البحث الأكاديمي والإعلام والتعليم. وفي المقابل، تبقى ورش الأمازيغية مفتوحة فيما يتعلق بتنمية المناطق القروية والجبلية، حيث ترتفع نسب الأمية والفقر. وبذلك سيصبح مسار النهوض بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية للأمازيغ متزامنا مع المجهودات المبذولة في سبيل تمكينهم من الحقوق اللغوية والثقافية ■

أبرز حدث إعلامي على طريق الدمج هو إنشاء أول قناة تليفزيونية ناطقة بالأمازيغية

«مغرب الكتب»: صالون أدبي بألوان المتوسط في باريس

دافيد-بيار ماركيه*

يرأس جورج مورين؛ وهو مُعلم سابق وُلِد في مدينة قسنطينة الجزائرية، جمعية تجمع بين العمل الإنساني والثقافة، اسمها Coup de Soleil، هدفها تعزيز التبادل بين الثقافات المختلفة في فرنسا من خلال نشر ثقافة وأدب البلدان المغاربية. تنظم الجمعية، منذ عام 1985، بتشجيع بدأه الكاتب الجزائري الراحل رشيد ميموني، صالونا أدبيا سنويا، بعنوان «مغرب الكتب» (le Maghreb des livres)، يَدعَمُه عُمدة باريس برتران لانوييه؛ المولود في تونس، والذي يفتح أبواب مقر بلدية باريس منذ عام 2001، لاستقبال هذا الحدث.

وبعد أن حقق صالون «الكتاب المغاربي» شُهرة واسعة، بات يُعقد، مع حلول عام 2010، في المركز الثقافي الجديد التابع لأحد المعالم الثقافية الفرنسية، وهو قصر Palais de la Porte Doré (قصر الباب الذهبي) كرمز للإسهام الذي تُقدِّمه ثقافة المهجر في فرنسا.

وكانت الجزائر ضيف الشرف لعام 2010؛ الذي يشهد أيضًا الاحتفال بالذكرى الخمسين لرحيل الكاتب الفرنسي ألبير كامو، ومرور خمسة عشر عامًا على رحيل رشيد ميموني، و20 عامًا على رحيل الكاتب الجزائري كاتب ياسين. وُجِّهت الدعوة للمشاركة في هذا اللقاء إلى 126 كاتبًا مغاربيًّا وناطقًا بالفرنسية. ومن بين الكتب التي عُرضت، 1200 كتاب صادر في بلدان المغرب العربي.

تتسم العلاقات، التي تربط بين الجزائر وفرنسا، بمشاعر قد يمكن وصفها بأنها مزيج من الحُب واللاحب. هذه العلاقة المُعقدة كتبها باللغة الفرنسية العديد من الكُتَّاب؛ فكاتب ياسين، مثلا، اعتبر اللغة الفرنسية «غنيمة حرب» ينبغي رفع قيمتها! فما إن دخل الفرنسيون الجزائر، حتى بدأ الشرق يُداعب خيال الكثيرين، وانبرت الأقلام تصف سحر النساء وأجواء البلاد وجمالها، واعتمد البعض منهجا استشراقيا، مثل أوجين فرومونتان وألفونس دوديه والأخوين غونكور وغوستاف فلوبير وأندريه جيد، وعكست كتاباتهم صورة مثالية للجزائر. وفي الفترة ما بين الحربين العالميتين، عبَّر الكُتَّاب الجزائريون عن واقعهم من خلال أعمال أدبية قَدَّمت غالبيتها شهادة على الأحداث. وبالرغم من أن بعضها اتسم بالعُمق، وبعضها الآخر بالسذاجة، فإنها عكست صورة لعالم بدا للوهلة الأولى غريبًا على القارئ الأوروبي.

واعتُبرت رواية ابن الفقير، للكاتب مولود فرعون، أولَ عمل أدبي مغاربي كبير كُتب باللغة الفرنسية، إذ خرج إلى النور قبل اندلاع حرب الجزائر بقليل. صدر الكتاب عام 1950، إلا أن صاحبه عندما بدأ كتابته في عام 1939 تعمَّد أن يتخذ كتابه؛ الذي يحكي قصة مُعلِّم نشأ في مجتمع ريفي قبلي، شكل السيرة الذاتية المُقنعة. وينأى هذا الأدب بنفسه عن الجنوح إلى توجيه النقد اللاذع للمستعمر؛ نظرًا لروابط الصداقة التي توطَّدت بين بعض الكُتَّاب وأصحاب «الأقدام السوداء»★★، كتلك التي نمت بين الكاتبَيْن إيمانويل روبليس ومولود فرعون، اللذيْن درسا معًا في إحدى المدارس العليا الباريسية، وهي الـ École normale. وهذا الأدب لا يَهدفُ إلى إثارة الضغائن، ولكنْ إلى كسر حاجز الصمت؛ فهو وسيلة للإفراج عمَّا يعتمل في الصدور، لكنه يبقى «أدب تسوية».

واستمر «أدب الالتزام» هذا حتى بعد الاستقلال ولم ينضب مَعينه؛ فالكثير من الكتاب المعاصرين، مثل مايسة باي وياسمينا خضرا وليلى صِبار وآسيا جبار، يميلون إلى العودة للاغتراف من هذا الماضي لينسجوا منه رواياتهم. وفي فترة التسعينيات، التي شهدت فيها الجزائر الكثير من الأعمال الدموية، دفع الأدباء ثمنًا غاليًا بسبب التطرف، وانعكست آلام تلك الفترة في روايات الكُتاب مثل بوعلم سانسال ورشيد بوجدرة وعزيز شواكي.

بعيدًا عن علامات الاستفهام وما لا تكشفه السرائر، يُعطي صالون الكتاب المغاربي*** فرصة جميلة للتعرف على هذا الأدب الثَّري الذي بات من الممكن قراءته باللُّغتين الفرنسية والعربية ■

★ مندوب اللجنة الدولية في بعثة القاهرة

★★ وصف يطلق على الفرنسيين الذين سكنوا الجزائر أو ولدوا فيها قبل حرب تحرير الجزائر أو أثناءها

★★★ يقام المعرض السابع عشر في 5و6 شباط / فبراير 2011

كيف نجعل الحروب «أكثر إنسانية»؟!

د. إقبال الغربي*

العنف ظاهرة لازمت الإنسان منذ وجوده، في الفعل والقول، ماديا أو رمزيا. ونحن نلاحظها في مختلف مجالات الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية. وأظهرت دراسات أنثروبولوجية وفلسفية عدة، أن الإنسان بحكم أنانيته وحبه للامتلاك هو عدواني بطبعه. فلا غرابة، إذن، أن تسود الحروب والنزاعات تعاملات البشرية. فشرط الإنسانية، البالغ الهشاشة، تحكمت فيه دائما، إذن، لعبة موازين القوى بين الدول والكتل المتناحرة، وطبعته قسوة وعدوانية الإنسان على أخيه الإنسان.

في التاريخ الحديث أوقعت الحروب، التي نشبت في أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى، آلاف القتلى من المدنيين الأبرياء، وارتكب العسكريون المحاربون العديد من الجرائم ضد الإنسانية. وأبادت الحربان العالميتان، الأولى عام 1914، والثانية عام 1939، الملايين من البشر، خاصة المدنيين من أطفال ونساء وشيوخ، ممن لم يكن لهم أي دور أو مشاركة في اتخاذ قرار الحرب، وفي ظل غياب قوانين دولية واضحة، وقتها، تمنع التعرض للمدنيين. وأمام هذا الوضع المأساوي، واجهت الإنسانية ظاهرة العنف بسن قوانين تحاول وضع حد أو خلق مخارج لهذا الوضع.

وبعد جهود مضنية ومتتابعة، وبتفان من اللجنة الدولية للصليب الأحمر، تم اعتماد اتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949، الخاصة بحماية الأشخاص المدنيين وقت الحرب. وليس من باب المبالغة القول إن أهم هذه الآليات هي قيم ومبادئ القانون الدولي الإنساني الذي يُطبق زمن الحرب، وعموده الفقري هو اتفاقيات جنيف الأربع وبروتوكولاها الإضافيان، في ما يعتبر أول منظومة قانونية كونية، من حيث شموليتها، صاغتها الإنسانية المفكرة لإنقاذ الإنسانية المتألمة.

والقانون الدولي الإنساني هو «مجموعة القوانين والضوابط التي تقيد وتنظم وسائل وأساليب القتال في زمن الحرب، وتحمي الذين لا يشاركون في الأعمال العدائية أو توقفوا عن المشاركة فيها» . وهو قانون واجب التطبيق، وملزم لكل أطراف النزاعات المسلحة، كما أنه ملزم أيضا للقوات التي تشارك في عمليات حفظ السلام. ويشدد القانون على «المعاملة الإنسانية»، و«التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين»، و«حماية المدنيين من آثار الأعمال العدائية والعقوبات الجماعية»، و«حظر الهجمات الموجهة ضدهم»، و«حماية اللاجئين»، و«منع التهجير القسري». وتنطلق هذه المنظومة أساسا من فكرة الدفاع عن الحقوق الأساسية أوالطبيعية المتعلقة بكل ذات بشرية، بهدف احترام الحياة والكرامة الإنسانية المتأصلتين في كل إنسان وتعزيزهما، وهو ما يضفي على القانون الإنساني طابعه الكوني الشمولي.

ومفهوم الكرامة قديم قدم التفكير البشري، وله صياغات خاصة في أغلب الفلسفات وفي كل الديانات، ولكنه جديد من حيث كونيته، ومن حيث اعتبار الكرامة صفة تتوافر في كل الناس، لا نثبتها بل نقررها. هذه الصياغة الكونية الجديدة تعني أن لكل ذات بشرية قيمة في حد ذاتها، وبغض النظر عن المحددات الاجتماعية والدينية والعرقية. وانطلاقا من هذا المبدأ، يجب التأكيد على أن من حق كل شخص أن يعامل على أساس أنه غاية لا وسيلة، وعلى أنه أغلى من كل شيء، وأن له قيمة قصوى، وأنه قيمة القيم.

الغاية الأساسية من القانون الدولي الإنساني، إذن، هي حماية الأفراد والمجموعات من تبعات قانون الغاب البربري، أي من «هجمة الجنون على التاريخ»، بتعبير المفكر الفرنسي ريمون آرون Raymond Aron. وتفيدنا الأدبيات القانونية الفلسفية الحديثة بأن الترجمة العملية لحماية الأفراد يمكن التعبير عنها بـ«تجنب الألم غير المشروع»، أي تجنب الوضعيات والممارسات التي تتسبب في المعاناة، أو في تفكيك الذوات.

وتكللت مجهودات المشرع الدولي بالتوقيع على العديد من الاتفاقيات، التي تعرّف الجرائم الدولية، خصوصًا جرائم الحرب والإبادة والجرائم ضد الإنسانية، بحيث يمكن القول إن معالم قانون دولي جنائي أصبحت واضحة، سواء من حيث الأفعال المؤثمة، أو من حيث المسؤولية الجنائية الشخصية لمرتكبي تلك الأفعال. وبذلك، صار المجتمع الدولي يملك تراثًا زاخرًا بمعاهدات، تحاول أنسنة الحروب، وتسعى إلى أن تكون النزاعات، وهي واقع بغيض لكنها واقع، أقل بشاعة، حتى لا يتحول المحارب إلى وحش ضار. غير أن هذا التراكم القانوني يواجهه اليوم العديد من التحديات.

ومن بين المفارقات المطروحة على بساط البحث، نذكر بعض الأسئلة التي تدور في الأذهان: إلى متى يظل القانون الدولي الإنساني قانونًا بلا جزاء؟ وهل يمكن للمحاكم الدولية أن تنقل هذا القانون من نصوص المعاهدات ومتون الأدبيات القانونية إلى سلوك تلتزم به الدول؟ وما هي آليات القانون الدولي الإنساني في ضوء تطورات الأوضاع الدولية في السنوات الأخيرة، خاصة مع بروز ظاهرة الإرهاب، التي تنخرط فيها أطراف دون هوية محددة، وشبكات ضبابية متعالية عن الحدود والدول؟ كيف يمكننا تقنين ما يسمى «الحرب على الإرهاب» ووضع ضوابط أخلاقية لها؟ ما هو إسهام القانون الدولي الإنساني في ما يتعلق بالأشخاص المحتجزين في إطار مكافحة الإرهاب وفي الحد من الممارسات المهينة وانتهاك الذوات؟

تجعل الأوضاع العالمية مصالح جميع الشعوب مترافقة ومتطابقة في السعي إلى صياغة ثقافة السلام كحتمية إنسانية وضرورة عملية لتطبيق قواعد القانون الدولي الإنساني، وبالتالي إلى تجاوز حالات القصور التي أظهرتها المعالجات الدولية السابقة وانعكاساتها السلبية على أمم بأسرها.

وللإسهام في استقراء آفاق وتحديات القانون الدولي الإنساني، لا بد من التأكيد على أهمية تعزيز ثقافة السلم والسلام التي تمكننا من صياغة وعي كوني جديد، ومن تخريج أجيال إنسانية متشبعة بقيم التضامن البشري، لا تنتهك حقوق الإنسان، ولا تسكت على انتهاكها. وهنا نؤكد على أن أسس ثقافة السلم والسلام موجودة في كل الديانات السماوية. فالإسلام، مثلا، أكد على احترام الذات الإنسانية بغض النظر عن انتماءاتها العرقية أو الثقافية أو العقائدية. وتضافرت نصوص الشريعة لتأمين حماية تضمن تكريم بني آدم: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا» (الإسراء الآية 70). وكان الإسلام ثورة على الظلم والظلام، ودعوة للحق والسلام، إذ بشّر بالقيم الكونية والحقوق الطبيعية بكل معانيها، وأكد على ضمان حقوق الإنسان في زمن الحرب فعلا وقولا. وفي مجال الدفاع عن الذات وعدم الاعتداء على الآخر، نجد قوله تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» (البقرة الآية 190). وحتى في الحالات التي تقتضي معاقبة العدو بمثل ما عاقب المسلمين، نجد القرآن الكريم يدعو إلى الحكمة والتريث: «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» (النحل الآية 126).

كما حث الإسلام على حماية «المدنيين». ويشمل هذا المفهوم في التشريع الإسلامي كل مهادن، ومن ليس له رأي في القتال، من الشيوخ والأطفال والنساء والرجال والتجار والصناع والفلاحين والأجراء وأفراد البعثات الطبية والدينية والقضاة والمقعدين وذوي العاهات والأسرى والموظفين، وهو ما ورد في البروتوكول الأول الإضافي لاتفاقيات جنيف. وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم قادة الجيش في الغزوات قائلا: «انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسوله لا تقتلوا شيخًا ولا طفلًا ولا صغيرًا ولا امرأة ولا تغلوا (أي لا تخونوا)، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»، كما نهى عن المثلة، أي التمثيل بالجثث، فقال: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»، وقال أيضًا: «لا تقتلوا ذرية ولا عسيفًا، ولا تقتلوا أصحاب الصوامع». ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم في إحدى الغزوات امرأة مقتولة، فغضب وقال قولته الشهيرة: «ما كانت هذه تقاتل أو لتقاتل».

وكان أبو بكر الصديق أول خليفة يوصي قائد أول بعثة حربية في عهده، أسامة بن زيد، قائلا: «لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تقطعوا نخلًا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة وسوف تمرون على قوم فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له». ونجد هنا أساسا لحماية البيئة أثناء الحرب، وهو ما دوّنه القانون الإنساني في مرحلة متأخرة عند إبرام البروتوكول الأول عام 1977.

وبحث بعض الفقهاء مسألة الأمومة في حالة الأسر، وذكر ابن قدامة المقدسي في «المغني» أنه لا يفرق في السبايا بين الأم وولدها الصغير، حتى إن رضيت الأم بذلك. وحرّم الفقيه الأوزاعي، (707 - 774م)، التعرض للفلاحين والرعاة والرهبان والعجزة وأصحاب الصوامع في وقت الحرب، كما حرم التعرض للصغار والنساء، حتى لو تمترس بهم الأعداء، أي اتخذوهم دروعا بشرية، بل إنه منع التعرض لأي موقع قد يكون فيه بعض هؤلاء. كما قضى بعدم جواز تخريب شيء من أموال العدو وحيواناته وأشجاره، استنادا إلى تعليمات خلفاء المسلمين لقادة الجيوش الإسلامية.

إن أنسنة الحروب والنزاعات المسلحة هي قضية ومصلحة مشتركة لجميع دول العالم، مهما اختلفت مواقع المشاركين. والقوانين الإنسانية ليست شيئا نحصّله أو لا نحصّله في قبضة اليد، بل هي أفق نصبو إليه، ويجب أن نصبو إليه، لأنّ اليأس أمر لا أخلاقيّ، ولأنّ السلبية لا يتغذّى منها سوى أعداء الإنسانية.

ثقافة السلام التي نطمح إليها هي إذن «الجهاد ضد النفس»، بل هي شرط من شروط تجربة العيش المشترك الذي يتحوّل فيه العنف إلى كلام وحوار وتفاوض واقتسام واقتراع ■

REUTERS

* أستاذة الأنثروبولوجيا الدينية في جامعة الزيتونة – تونس

اللجنة الدولية في دول المغرب العربي

أنشطة متعددة للحفاظ على المبادئ واحترام الكرامة الإنسانية

أنشئت البعثة الإقليمية للجنة الدولية للصليب الأحمر في تونس في العام 1987، وهي تغطي ليبيا والمغرب وموريتانيا وتونس. وتدير بعثة تونس الملف الخاص بالصحراء الغربية، لاسيما الإشكالية المتعلقة بالمفقودين. كذلك افتتحت اللجنة الدولية بعثة لها في الجزائر في العام 2002. وتتنوع أنشطة اللجنة الدولية في منطقة المغرب العربي بين زيارة المحتجزين وإعادة الروابط العائلية والكشف عن مصير المفقودين في نزاع الصحراء الغربية ومساعدة ضحايا الألغام والتعريف بالقانون الدولي الإنساني والتعاون مع جمعيات الهلال الأحمر الوطنية.

زيارة الأشخاص المحتجزين

تزور اللجنة الدولية المحتجزين في تونس وموريتانيا منذ عام 2005. كما كانت تقوم بزيارات لمؤسسات احتجاز تابعة لوزارة العدل في الجزائر منذ العام 1999. وتأتي زيارات اللجنة الدولية لأماكن الاحتجاز في البلدان الثلاثة بناء على اتفاقات موقعة مع السلطات المعنية في كل بلد منها. وتم التوصل لهذه الاتفاقات بعد أن عرضت اللجنة الدولية خدماتها على أساس حق المبادرة الإنسانية الذي تتمتع به.

إعادة الروابط الأسرية

لمساعدة الأشخاص الذين فقدوا كل أثر لأقاربهم، تواصل اللجنة الدولية من خلال خدمة تبادل رسائل الصليب الأحمر الحفاظ على الروابط الأسرية بين الأشخاص المحتجزين في «غوانتانامو» أو في أفغانستان أو العراق وأسرهم في المنطقة. وتتلقى اللجنة الدولية طلبات للبحث عن أشخاص مفقودين أو منفصلين عن أسرهم نتيجة لنزاعات أو غيرها من حالات العنف. وهي تواصل تنفيذ برنامج الاتصالات الهاتفية بين الأشخاص المحتجزين في «غوانتانامو» أو في «بغرام» في أفغانستان وأسرهم. كما نظمت أيضا لقاءات عبر الفيديو لتمكين بعض المحتجزين في «غوانتانامو» من تبادل الأخبار مع أسرهم.

المفقودون في نزاع الصحراء الغربية

في إطار دورها كوسيط محايد، اقترحت اللجنة الدولية على المغرب وجبهة البوليساريو إطار عمل منظم بهدف دعم جهودهما الرامية إلى الكشف عن مصير الأشخاص المفقودين أثناء نزاع الصحراء الغربية (1975–1991). وبناء عليه، حدد الطرفان نظما لجمع كل المعلومات ذات الصلة وتدوينها مركزيا، بما يسمح بالكشف عن مصير المفقودين والاستجابة لاحتياجات الأسر المعنية من النواحي الإدارية والاقتصادية والنفسية.

ICRC

مساعدة ضحايا الألغام

لمواجهة الآثار الإنسانية ذات الصلة بمخلفات الحرب القابلة للانفجار والألغام المضادة للأفراد التي يعود تاريخها إلى نزاع الصحراء الغربية، تدير اللجنة الدولية مركزا لإعادة التأهيل البدني، لمساعدة المعاقين جسديا، الذين يعيشون في مخيمات اللاجئين الصحراويين في منطقة «تندوف» جنوب غربي الجزائر. ويوفر المركز لمبتوري الأطراف وللأشخاص المصابين بإعاقة حركية إمكانية الحصول محليا على الخدمات التي يحتاجونها. والهدف من ذلك أن يستعيد هؤلاء الأشخاص درجة من الاستقلالية ونمطا من العيش يتيح لهم الاندماج مجددا في المجتمع وحفظ كرامتهم الإنسانية.

التعاون مع جمعيات الهلال الأحمر

استطاعت اللجنة الدولية، على مدار سنوات، وفي إطار الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر إقامة علاقات تعاون وثيقة مع الجمعيات الوطنية للهلال الأحمر في البلدان المغاربية الخمسة وهي على استعداد دائم لتقديم المزيد من الدعم– ضمن مجالات اختصاصها– لبرامج هذه الجمعيات على أساس مشاريع محددة. وواصلت اللجنة الدولية دعمها لجهود الجمعيات الوطنية في بلدان المنطقة لتمكينها من الحفاظ وتطوير أنشطتها الرامية إلى إعادة الروابط التي تقطعت بين الأشخاص لأسباب تتعلق بالهجرة أو الاحتجاز أو إثر نزاع مسلح. كما تستمر اللجنة الدولية في تنظيم دورات تدريبية لموظفي جمعيات الهلال الأحمر في المنطقة في مجال الإعلام والقانون الدولي الإنساني. وتساند اللجنة الدولية الهلال الأحمر المغربي وإحدى المنظمات الصحراوية غير الحكومية من أجل توعية السكان المعرضين بمخاطر الألغام والذخائر غير المتفجرة الأخرى.

وفي ظل الاضطرابات التي يشهدها عالمنا اليومَ، تسعى اللجنة الدولية إلى الحفاظ على المبادئ الإنسانية واحترام الكرامة الإنسانية، حتى في أسوأ الظروف، سواء في بلدان المغرب العربي، أو في أي مكان آخر. وصولا لتحقيق هذا الغرض، تحاول اللجنة الدولية إقامة علاقات مبنية على الثقة بين جميع الأطراف المنخرطة في الميدان ■

عادل الأحمر*
رسوم: حمادي محمد**

كان ابن خلدون أول من وضع علم الاجتماع على أسسه الحديثة، في القرن الرابع عشر الميلادي، فقد خرج بنظرياته الاجتماعية حول قوانين العمران ونظرية العصبية وملاحظاته الدقيقة حول قيام وسقوط الدول وأعمارها وأطوارها. كما خصص جزءا من مقدمته الشهيرة للتنظير للحرب، وحاول وضع أسس علمية لأشكالها المختلفة ولاستراتيجياتها من وجهة نظر عالم الاجتماع المطلع، دقيق الملاحظة، القادر على النقد مع تمتعه بحرية في التفكير.

خطط الحروب «الخلدونية».. وأسباب النصر والهزيمة

لم يكن الفتى عبد الرحمن بن خلدون بلغ السادسة عشرة من عمره عندما دخلت جيوش سلطان فاس، أبي الحسن المريني، مدينة تونس غازية عام 748هـ/ 1347 م. وكان هذا الحدث، بالنسبة لذلك الشاب الذي سيصبح، في ما بعد، صاحب «المقدمة»، وواضع أسس علم الاجتماع، أول مظهر من مظاهر الحرب يشهده بعينه، بعد أن قرأ عنها في الكتب، وحدثوه عنها في أسمار العائلة ودروس جامع الزيتونة في تونس. ومنذ ذلك الحين، ستلازم الحرب ابن خلدون في الكثير من ردهات حياته، وفي حلّه وترحاله بين إفريقيا والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى ومصر والشام، وتفرض وجودها عليه إن لم يبحث عنها قاصدا.

هذه القصة الطويلة مع الحرب عاشها ابن خلدون مشاهدا رغم أنفه أحيانا، وشريكا بمحض إرادته أحيانا أخرى، ووسيطا بارعا في بعض الحالات. ثم اتسعت كتبه لموضوع الحرب فكان منظّرا لها في «المقدمة»، ومؤرخا لأحداثها في «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، المعروف إيجازا بـ «كتاب العبر».

«ابن خلدون» كما هو مصور على عملة من فئة العشرة دنانير التونسية

ابن خلدون منظّرا للحرب

مثلما كان للحرب حضور لافت في حياة ابن خلدون، فإنها كانت أيضا حاضرة في كتاباته، فتناولها من زاويتين: زاوية المنظّر وزاوية المؤرّخ.

كمنظّر، تناول ابن خلدون الحرب في «المقدمة»، في فصل عنوانه: «في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها»، شرح فيه دواعي الحروب، وحلّل استراتيجياتها، ودرس أسباب الظّفر فيها. وانطلق ابن خلدون، في كل هذا، من حقيقة مطلقة يفرضها النظر في تاريخ الإنسانية «منذ برأها اللّه»، وهي أن الحرب «أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل». ولا ندري إن كان ابن خلدون يقصد بالطبيعي أن غريزة العدوان متأصلة في البشر، مثل سائر الحيوانات، أم أنه يعني أن الحرب أمر اعتاده البشر منذ بدء الخليقة، حتى غدا طبيعة فيهم.

وأصل الحرب، حسب ابن خلدون، هو «إرادة انتقام بعض البشر من بعض»، وأسباب هذا الانتقام في رأيه أربعة:

أ– «الغيرة والمنافسة»، ويتم ذلك في أغلب الأحيان «بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة»، فهي حروب الجور على الأرض وخيرات الطبيعة، أو من أجل فرض السيطرة وتوسيع النفوذ.

ب– «العدوان»، وأكثر ما يكون «في الأمم الوحشية الساكنين بالقفر لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم»، فهم لا يبحثون من خلال الحرب عن «رتبة ولا ملك»، ولكن عن انتزاع ما في أيدي الناس بالقوة، لأن في ذلك وسيلة عيشهم. ●●●

* باحث تونسي وموظف في منظمة الأليكسو
** رسام تونسي
*** أبو بكر الطرطوشي: فقيه مالكي، من مواليد مدينة طرطوش في الأندلس، رحل إلى المشرق للتفقه على علمائه، ثم بقي معلما للفقه في الإسكندرية. من أهم آثاره: «سراج الملوك في سلوك الملوك».

ج- «الغضب للّه ودينه»، وهو المسمى في الشريعة بـ«الجهاد»، ويمكن أن يشمل، بصفة أعم، كل أصناف الحروب الدينية، أو التي تتخذ من الدين ذريعة.

د- «الغضب للملك والسعي في تمهيده»، وهو «حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها»، وكذلك الحروب المؤسسة لإقامة الدول وفرضها.

ثم يوجز ابن خلدون الأصناف الأربعة السابقة في صنفين فقط: «حروب بغي وفتنة»، ويدرج فيها حروب الغيرة والمنافسة وحروب العدوان؛ و«حروب جهاد وعدل» ويضمنها الحروب الجهادية وحروب الدول مع الخارجين عليها. فهل نفهم من هذا أن ابن خلدون يبرر أخلاقيا حروبا دون أخرى ويرى في بعضها نزعة شر: (بغي وفتنة)، وفي البعض الآخر نزعة خير: (جهاد وعدل)؟ المهم أن ابن خلدون انتهى بشأن الحرب إلى تصنيف واضح المعايير يقوم في جانبه الأول على غايات الحرب، ويستند في جانبه الثاني على رؤية أخلاقية تقابل بين الخير والشر، رغم ما يمكن أن يقال طبعا في هذه المعايير وفي مشروعية الحروب عموما.

وفي الفصل نفسه، ينتقل ابن خلدون إلى تناول بعض جوانب الحرب التي تعرف في لغة عصرنا بالاستراتيجيات والخطط الحربية وتنظيم الجيوش، والعوامل المرجّحة للانتصار في الحرب. في حديثه عن الإستراتيجيات الحربية السائدة في زمانه، يفرق ابن خلدون بين نوعين من العمل العسكري الميداني: الزحف صفوفا من ناحية، والكر والفر من ناحية أخرى، مشيرا إلى أن النوع الأول هو «قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم»، في حين أن الكر والفر هو «قتال العرب والبربر من أهل المغرب».

وينطلق ابن خلدون من هذا التصنيف إلى مقارنة بين هذين النوعين في القتال تبرز إحاطته بالموضوع وتمكنه من الأدوات التي يستعملها في المقارنة، وهي تاريخية في أغلبها تستعرض الموضوع عبر عدة حقبات، ومن خلال أمم كثيرة كالعرب، والروم، والفرس، والقوط.

ويعلن ابن خلدون نتيجة هذه المقارنة منذ الوهلة الأولى: «قتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم قدما. لذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو، لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد، لا يطمع في إزالته»، وأما قتال الكر والفر «فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف». يفضل ابن خلدون قتال الزحف إذن، ويجد له ما يدعمه في القرآن: «إن اللّه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص»، وفي الحديث النبوي الشريف: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

ويتناول ابن خلدون ظاهرة أخرى من ظواهر التكتيك الحربي، يشترك فيها أهل الكر والفر مع أهل الزحف، وهي «ضرب المصافّ وراء العسكر»، وتتمثل في وضع جمادات وحيوانات وراء الجنود، يتخذها الفريق الأول ملجأ للفرسان في كرّهم وفرّهم، بينما يضعها الفريق الثاني في مؤخرة الجيش «فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم».

لكن الجديد الطريف في هذا الفصل، بالنسبة لزمنه حسب رأينا، هو تناوله أسباب الظفر في الحرب. والأطرف من ذلك، هو قوله بأن الظفر والغلب في الحرب هو «من قبيل البخت والاتفاق» (أي المصادفة)، و«لا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد».

ويشرح ابن خلدون نظريته بأن أسباب الانتصار (الغلب) في الحرب نوعان: أسباب ظاهرة ومنها أعداد الجيوش و«كمال الأسلحة، وكثرة الشجعان»، وترتيب صفوف الجيش و«صدق القتال»، وأسباب خفية، «وهي إما من خدع البشر وحيلهم» في الحرب أو «أمور سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها، تلقى في القلوب، فيستولي الرهب عليهم لأجلها، فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة». ويقرّ ابن خلدون بأن «أكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية»، لأنّ الفريقين المتحاربين –كما يقول ابن خلدون– يركزان على هذه الأسباب «حرصا على الغلب، فلا بدّ من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة». ويدعم ابن خلدون رأيه بقول رسول اللّه: «الحرب خدعة»، ومن أمثال العرب: «رب حيلة أنفع من قبيلة». ونفهم أن ابن خلدون يرجّح كفّة المسائل التكتيكية، بلغة اليوم: «التقدم إلى الأماكن المرتفعة، التواري عن العدو لمفاجأته»، والحرب النفسية: «الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل» على كفة العُدّة والعدد. على أنه يضيف إلى هذه العوامل الميدانية عاملا آخر غير مرئي هو «وقوع الغلب عن الأمور السماوية»، مستشهدا في ذلك بانتصارات الرسول على المشركين وبالفتوحات الإسلامية.

وسواء كانت الأسباب الخفية للغلب من نوع التكتيك والخدعة أو بفعل قوى سماوية خفية، فإن النتيجة واحدة، وهي ما أعلنه ابن خلدون في البداية من أن الظفر في الحرب والغلب هو «من قبيل البخت والاتفاق»، لأن «وقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت».

وفي السياق ذاته، يؤكد ابن خلدون رفضه مبدأ ربط النصر بالعدة والعدد، ويرد على ما ذكره الطرطوشي*** عن أن من أسباب الغلب في الحروب وجود عدد أكبر من الفرسان المشاهير الشجعان في أحد الجانبين، «فالجانب الزائد بواحد يكون له الغلب». ويواجه ابن خلدون هذه النظرية، التي تفسر الانتصار بعدم التكافؤ الكمي والنوعي بين الجهتين المتحاربتين، بتعليل يقوم على النظرية التي اشتهر بها في «المقدمة»، وهي نظرية العصبية، معتبرا أن العنصر الحاسم في تحقيق النصر هو حال العصبية، فالغلب يكون للجانب الذي تكون فيه «عصبية واحدة جامعة لكلهم»، وذلك على حساب الجانب الذي تكون فيه عصائب متعددة، وذلك «لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية». وبذلك، نجد أنفسنا في السياق الخلدوني الحقيقي الذي يفسر وقائع التاريخ انطلاقا من نظام مفهومي وتحليلي متكامل تقع العصبية في محوره.

علم نفس الحروب

وفي فصل آخر من «المقدمة» عنوانه: «شارات الملك والسلطان الخاصة به»، يتحدث ابن خلدون عن الجوانب النفسية في الحروب، من خلال تناول موضوع «نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون» إبان الحروب، وهو ما يسميه «الآلة». ويقدم ابن خلدون تفسيرين لاستعمال هذه الأدوات: الأول للفيلسوف اليوناني أرسطو، ومفاده أن ذلك لـ «إرهاب العدو في الحرب، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفس بالروعة»، أي الترويع. ويعتبر ابن خلدون هذا السبب صحيحا نسبيا، أو «ببعض الاعتبارات»، كما يقول حرفيًا. «وأما الحق في ذلك»، وهو التفسير الثاني الذي يميل إليه أكثر، باعتباره رأيه الشخصي، «هو أن النفس، عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك، فيصيب مزاجَ الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه».

إذن، على عكس أرسطو، يرى ابن خلدون أن استعمال الرايات وآلات الموسيقى في الحرب ليست موجهة أساسا للتأثير في نفوس الأعداء، بل لبث روح القتال ورفع المعنويات لدى الجيوش التي تستخدمها. ويؤكد ابن خلدون، في هذا السياق، تأكيدا خاصا، على تأثير الموسيقى عند العجم، والشعر عند العرب، في الحث على الاستماتة لدى المقاتلين. «أما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر». والمقصود بهذا التهويل، في تصور ابن خلدون، ليس العدو بل الجيوش التي تحملها لها، إذ «ربما يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام».

واللافت في هذا التناول أن ابن خلدون أظهر مرة أخرى حبّه «المخالفة في كل شيء»، كما قيل عنه، ونزعته إلى الإتيان بالجديد، وإعادة النظر في السائد من الأفكار والنظريات والانفراد بالرأي الطريف غير المتوقع، وتلك هي عبقرية هذا الرجل الذي كان مقتنعا وواعيا بتوقه إلى الجديد.

الحرب البحرية

وفي فصل آخر من «المقدمة»، خصصه لـ«مراتب الملك والسلطان وألقابها»، يتناول ابن خلدون الحرب البحرية، فيتحدث عن قيادة الأساطيل، وهي «من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وإفريقية ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال». ويأتي حديثه هنا من باب التأريخ للبحرية العسكرية في حوض البحر الأبيض المتوسط أو البحر الرومي (أو البحر الشامي كذلك)، كما يسميه ابن خلدون. ومن هذا التأريخ نقرأ انتقال السيطرة البحرية من الضفة الشمالية: (العدوة الشمالية في لغة ابن خلدون)، ضفة الروم والإفرنج والقوط، إلى الضفة الجنوبية، ضفة البربر والعرب والمسلمين، في زمن مجدهم، ثم عودة السيطرة إلى أهل الشمال: (الإسبان خصوصا)، «عندما تراجعت قوة المسلمين في الأساطيل، لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر، بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية».

هذه بعض مظاهر الحرب التي تناولها ابن خلدون في «المقدمة»، ولاشك أن قراءة متأنية ومعمقة لهذا الأثر الجليل ستفرز جوانب أخرى من إحاطة هذا العلامة الكبير بهذا الموضوع ■

رحلة امرأة إلى القمة لمكافحة سرطان الثدي

تحدي كليمنجارو

عبير سليمان*

منذ عامين تقريبًا زارتني «أم سما»، وهي سيدة لا يربطني بها سوى التقدير والمحبة والصداقة. كانت واهنة بشكل واضح، وأخبرتني بأنها مصابة بفيروس في الرئة. صدمتني بقولها إنها لن تشتري الدواء الذي كتبه لها الطبيب، «لأن قيمته قد تصل إلى 300 جنيه مصري (حوالي 54,5 دولار)»، وصافي دخل زوجها 450 جنيها شهريا. قالت: «إما أن أوفر طعاما لأبنائي، أو أشتري الدواء».

صدمتني فكرة أن الفقر قد يضع الصحة في كفة والطعام في الكفة الأخرى. لكن هذا الخيار قد يبدو طبيعيا ومطروحا في البلاد التي تعيش نسبة كبيرة من سكانها تحت خط الفقر العالمي، الذي تحدده «الأمم المتحدة» بما يساوي دولارين للفرد يوميا.

بعد أسبوع من زيارة «أم سما»، صدمتني إحصائية قرأتها، في إحدى الصحف، تؤكد أن هناك امرأة بين كل سبع نساء في مصر تصاب بسرطان الثدي. وتبين لي أن هذه أعلى نسبة إصابة، بين مختلف الأورام السرطانية، في المعهد القومي للأورام، فحوالي 30٪ من حالات السرطان التي يعالجها المعهد تندرج تحت فئة سرطان الثدي. وهذه النسبة أعلى من النسبة العالمية لتشخيص سرطان الثدي عند النساء، التي تصل إلى امرأة من كل ثماني نساء.

ماذا يحدث إذا اجتمع الفقر والمرض سويًا؟

سألت نفسي: «ماذا أستطيع أن أفعل؟ لست طبيبة لأتبرع بعلمي لعلاج الفقراء. ولست ميسورة الحال لأتبرع بما زاد عن حاجتي. وحتى إذا كان لدي ما أتبرع به، فإنه ربما يكفي لمساعدة فرد واحد. أردت أن أساعد أكبر عدد ممكن ممن يواجهون الفقر والمرض في ظل غياب التأمين الصحي عن كثير من الفئات المهمشة والفقيرة».

هنا ظهرت فكرة «تحدي كيلي». قررت أن أتسلق «جبل كليمنجارو» إلى قمته، التي تعتبرالأعلى في أفريقيا، ويصل ارتفاعها إلى 5982 مترا فوق مستوى سطح البحر، لصالح مرضى سرطان الثدي في مصر. انضمت لمشروعي صديقتان، إحداهما فلسطينية والأخرى لبنانية، لتشجيعي على هذه المغامرة، وقررتا خوضها معي. وعلى الفور توجهت بمشروعي إلى عميد كلية طب قصر العيني، التابعة لجامعة القاهرة، الذي وجهني إلى مسؤولة في المشروع القومي لصحة المرأة، مع توصية بأن تقدم لي المساعدات المطلوبة.

أخبرتني الدكتورة درية سالم، رئيسة المشروع التابع لوزارة الصحة المصرية، بأن الدولة تولي اهتمامًا مكثفًا بسرطان الثدي، وأنهم يسعون لتأسيس «البرنامج القومي لصحة المرأة». ويهدف البرنامج، حسب الدكتورة درية، إلى شراء 40 حافلة طبية كاملة التجهيز بالمعدات الطبية وطاقم الأطباء والمساعدين، ستجوب مختلف القرى المصرية، وكل عربة فيها جهاز «ماموجرام» للكشف عن سرطان الثدي في مراحله المبكرة: «سنطرق أبواب البيوت لتقديم خدمات الفحص الطبي، فخطورة سرطان الثدي أنه لا يسبب ألما في بدايته. الآلام تظهر في مراحل متأخرة، قد لا تبقى فيها خيارات سوى الاستئصال أوالعلاج الكيميائي. لكن في حالة الاكتشاف المبكر تكون السيطرة على الأورام ممكنة، وتصل التكلفة إلى 15 ألف جنيه، مقابل ربع مليون جنيه مصري، هي التكلفة التقديرية للعلاج في المراحل المتأخرة، التي يكون فيها الاستئصال حتميا. وربما تكون الخلايا السرطانية انتشرت في أماكن أخرى من الجسد»، هكذا شرحت لي الدكتورة درية سالم.

ليس شرطا أن يكون العمل الإنساني منظما داخل جمعيات أو مؤسسات، فالأفراد أيضا يمكنهم أن ينخرطوا بقدر ما يستطيعون في هذا المجال، وأن يقدموا خدمات للإنسانية، أو لفئات تحتاج إلى لفت الأنظار إلى معاناتها. هذا بالضبط هو ما فعلته عبير سليمان، كاتبة القصة والمدونة المصرية، التي قررت أن تتسلق قمة جبل كليمنجارو، أعلى قمة في إفريقيا، لصالح مرضى سرطان الثدي.

يهدف «تحدي كيلي» –الذي يمثل «البرنامج القومي لصحة المرأة» إعلاميًا– إلى توعية النساء بأهمية الاكتشاف المبكر لسرطان الثدي. كما يهدف إلى مناشدة رجال الأعمال للاهتمام بهذا المشروع القومي والتبرع لشراء الحافلات الطبية، التي تبلغ تكلفة الواحدة منها 1,5 مليون دولار أمريكي.

أردت أيضًا أن أدخل البيوت المصرية عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، لأخبر كل امرأة بأن جسدها هو الوعاء الذي يحملها في الحياة، وتوعيتها بضرورة الاهتمام به ورعايته ومعرفته جيدا، ولفت الانتباه إلى أهمية الاكتشاف المبكر لسرطان الثدي، وكيفية الفحص الذاتي. لابد أن تعرف كل امرأة شكل الثدي، وحجمه وملمسه، لتتمكن من فحصه بشكل دوري. ومن المهم أن تتوجه فورًا إلى أقرب طبيب أو الوحدة المخصصة لعلاج السرطان في قصر العيني، إذا لاحظت أي تغيير أو تكوينات غير طبيعية. وتعهد القائمون على البرنامج القومي لصحة المرأة بأن أية حالة تثبت إصابتها ستتولى الدولة علاجها بالمجان.

حاولت الوصول إلى عدد من رجال الأعمال دون جدوى حقيقية. ومنهم من اعتبر أنني أسعى للذهاب في رحلة سياحية تحت شعار عمل الخير. هل أردت أن أتسلق أعلى قمة في أفريقيا، حيث نسبة الوفيات على الجبل تصل إلى 3٪ من أجل التنزه؟ لماذا لم أفكر في جبال الألب، إذن، أو نهر السين؟ أو منابع النيل حتى؟

في رحلتي هذه، أدركت أن أغلب الرجال لا يستجيبون بالشكل المتوقع لهذا المرض، ربما لأنه يبدو بعيدا عنهم، رغم أنه قد يهدد نساءهم وأمهاتهم وبناتهم. رأس المال يتركز في أيدي الرجال، للأسف. والمرض، في الغالب، يستهدف أجساد النساء. و«تحدي كيلي» يسعى لتضييق الهوة بين طرفي المعادلة.

مع مرور الوقت، أوشكت على اليأس من إتمام مشروعي، فصديقتي الفلسطينية سافرت لتعيش في الولايات المتحدة، حيث تزوجت، وأصبحت أمًّا، وصارت مشاركتها مستحيلة، وانتقلت صديقتي اللبنانية للعمل في محطة إخبارية مهمة في لندن، وانشغلت هي الأخرى بحياتها، فبقي التحدي لي وحدي.

ذهبت إلى كليمنجارو، وتسلقت مصاعبه، ووصلت إلى قمته بعد معاناة اقتربت، أحيانا، من الموت، على مدار أسبوع كامل، وعدت من رحلتي بشعار الجبل: «بولي.. بولي»، وهو يعني «واحدة.. واحدة» باللغة السواحيلية. تعلمت من هذه التجربة أن الحياة ليست سباقا، لكنها رحلة، وأننا لكي نصل فيها إلى القمة يجب أن نسير ونفكر بطريقة «بولي، بولي».

الآن أنجزت المهمة، تسلقت جبلي، تسلقت كليمنجارو. وأدعو كل النساء إلى تسلق جبالهن العالية. تسلقن مرض سرطان الثدي باكتشافه مبكرا.

الرحلة إلى قمة الجبل تعتمد على قوة الإرادة وقوة العقل، فلا تنسين شعارنا في الحياة: «بولي.. بولي» ■

CRC

* كاتبة قصة ومدونة مصرية

طفولة

ناجي الشنّاوي*
الرسم : أحمد اللبّاد**

* كاتب مصري
** رسام مصري

تراوده، بين الحين والحين، رغبة في الانعتاق.

الليلة كانت في أوج اشتعالها، انفلت من إسار مساراته، التي حددها، وحفظها –بكل الدقة– على مر السنين؛ فتبعثرت أشياؤه المرتبة، فوق المناضد، وتحت السرير، وفوق الرفوف، والمعلقة على الحوائط.

سنوات طويلة –وتكرار مستمر– أبقت على أمكنة أشيائه، بلمسة واحدة على الحائط، يلمس إفريز الباب –على مستوى الكتف– حين يجده مخرومًا، إثر سقوط عقدة من الخشب، فتكون المنضدة الخاصة بأدوات الحلاقة، والراديو والكاسيت والأشرطة والعصا– على بعد شبر، إذا أنزل بيده المستوى إلى منتصف ساقه.

وإذا استدار، وأعطى كل هذا ظهره، يصير أمام عينيه شباك الشارع الوحيد، وأمامه الحمام، ويساره طرقة، بها مطبخ ذو موقد كهربي، وأدوات الشاي والقهوة، وحوض يغسل فيه وجهه، وأكوابه، ويميز ما بين صابون الوجه، والصحون، بحجميها.

تفضي به الطرقة، والمطبخ، بعد خطوة قصيرة، لحجرة نومه، سريره ودولابه وكرسيه الوحيد والمنضدة، وخلفها باب السطح، حيث الحمام، والسماء، والمقعد الحجري، واللبلابة السارحة المتوغلة.

بانفلاته هذا، أوقع الموقد، وكسر الزجاجات والأكواب، وخلط صابونتيه، وتعثر في السجادة، فتحطمت منضدته، وطاح كرسيه، حاول الارتداد، فاشتبك في جبهته مسمار بالحائط، فوقع على سريره، وبعثر ألواحه، فانفتحت ضلفتا الدولاب، وتبعثرت الأشياء، وصار المكان المنتظم –دومًا– فوضى شاملة، استقر على الأرض مرعوبًا، لا يعرف من أين يبدأ، وقد تبدلت كل المعالم، قام بحذر وخطا خطوتين بلا تعثر، وفي الثالثة تعثر بشدة، فتكور ووقع ممددًا فوق أرضية السطح، نسمة باردة تلفح حبات العرق الغزيرة والدموع، استقر على ظهره مرتاحًا متحررًا!!

لاح له طائر قوي، يشق عباب السماء بجناحيه الكبيرين، أسود، والسماء سوداء، حين اقترب منه ظهرت النجوم، ونيازك تحترق، وعقود من مجرات، وثريات من كواكب، حتى ثبتَت نقطًا مضيئة –بلا تلألؤ– في سماء سوداء، ونسمة باردة ودمعة متحجرة، بريق شهاب من منتصف السماء، جارٌّ وراءه قوسًا من نور، هوى في آخر المدى متبددًا ■

من شعر الأمل والتحدي

طاغور*

ترجمة
خليفة محمد التليسي

* شاعر هندي

الرسوم: حسين جمعان

البَخُورُ يذُوبُ لِيَتَحَلَّلَ فِي العِطْر

والعِطْرُ يَذُوبُ لِكَي يَلْتَحِمَ بالبَخُور

والنَّغَمُ يَسْعَى لِمُعانَقَةِ الإيقَاع

بَيْنَمَا يَعُودُ الإيقَاعُ مُتَدَفِّقًا في النَّغَم

والفِكَرَةُ تَبْحَثُ عن هَيْأَتِهَا فِي الصُّورَة

والصُّورَةُ تَبْحَثُ عَنْ حُرِّيَتِهَا فِي الفِكرَة

واللانِهَائِي يَبْحَثُ عن لمسة النِهائي

والنهائي يَبْحَثُ عن انعِتَاقِهِ فِي اللانِهَائي

أيَّ مَأسَاةٍ هَذِهِ تَجْري بَيْن الخَلْقِ والتَّدْمِير

وهَذِهِ الحَالةُ بَيْنَ الفِكْرَةِ والصُّورَة

العُبُودِيَّةُ تُصَارِعُ الحُرِّيَة

والحُرِّيَةُ تَبْحَثُ عَن راحَتِهَا فِي العُبُودِيَّة

دول مجلس التعاون:

مدير عام اللجنة الدولية يزور 4 دول خليجية

في إطار الأولوية التي توليها اللجنة الدولية للصليب الأحمر لمنطقة الخليج، قام المدير العام للجنة، السيد **إيف داكور**، بزيارة شملت كلا من المملكة العربية السعودية، الكويت، الإمارات العربية المتحدة، وقطر على التوالي في الفترة من 28 تشرين الأول/ أكتوبر إلى 5 تشرين الثاني/ نوفمبر.

والتقى **داكور** في زيارته مسؤولين حكوميين، منهم وزير الخارجية في المملكة العربية السعودية، صاحب السمو الملكي الأمير سعود الفيصل، ومساعد وزير الخارجية للشؤون الإنسانية في دولة الإمارات العربية المتحدة، السيد **سعيد الشامسي**، ووكيل وزارة الخارجية في دولة الكويت، السيد **خالد الجار الله**. كما التقى رئيس جمعية الهلال الأحمر السعودي، صاحب السمو الملكي الأمير **فيصل بن عبد الله بن عبد العزيز**، ورئيس مجلس إدارة جمعية الهلال الأحمر الإماراتي، **أحمد حميد المزروعي**، وعضو مجلس إدارة الهلال الأحمر الكويتي، السيد **سعد الناهض**، ونائب رئيس جمعية الهلال الأحمر القطري، الدكتور **محمد غانم العلي**.

وتهدف هذه الزيارة، وهي الأولى للمدير العام إلى منطقة الخليج منذ تعيينه في منصبه في تموز/ يوليو 2010، إلى تعزيز العلاقة القائمة بين اللجنة الدولية من جهة، والحكومات والجمعيات الوطنية، من جهة أخرى، في المجال الإنساني والتركيز على أهمية العمل الإنساني المستقل والمحايد، إضافة إلى الحوار حول كيفية دفع العمل الإنساني الذي تقوم به اللجنة الدولية بالشراكة مع جمعيات الهلال الأحمر في المنطقة.

وعلى هامش الزيارة، جرى توقيع مذكرة تفاهم بين البعثة الإقليمية للجنة الدولية وجمعية الهلال الأحمر الإماراتي لتفعيل التعاون في مجالات التدريب والمساعدات المقدمة للدول المتضررة من النزاعات.

الدوحة:

تدريب ضباط الشرطة على القانون الدولي الإنساني

بالتعاون مع إدارة حقوق الإنسان في وزارة الداخلية القطرية، وجمعية الهلال الأحمر القطري، نظمت البعثة الإقليمية للجنة الدولية للصليب الأحمر لدول مجلس التعاون الخليجي الورشة التدريبية الأولى حول القانون الدولي الإنساني لضباط الشرطة، في الدوحة في الفترة من 10 إلى 14تشرين الأول/ أكتوبر 2010.

وفي الكلمة الافتتاحية للورشة، شدّد نائب المفوّض الإقليمي للجنة الدولية السيد **مؤيد كلابي**، على "**تزايد أهمية القانون الدولي الإنساني وواجب احترامه وضرورة وجود آلية وطنية في جميع الدول للمعاقبة على الانتهاكات، وعلى ضرورة التعاون مع جمعية الهلال الأحمر القطري في نشر قواعد هذا القانون**". وأكد نائب رئيس جمعية الهلال الأحمر القطري، **د. محمد غانم العلي**، على "**استقلالية الجمعية عن السلطات الرسمية مما يمكّنها من تأدية واجبها الإنساني**"، منوها بوجوب "**احترام كرامة الإنسان**". وشدّد مدير إدارة حقوق الإنسان في وزارة الداخلية في دولة قطر، المقدّم **عبد الله صقر المهنّدي**، على "**حرص الوزارة على تنمية الثقافة القانونية لموظفيها، والتزام السلطات الرسمية بالوفاء بتعهداتها بنشر قواعد القانون الدولي الإنساني على أوسع نطاق ممكن، وفقا لما أقرّته اتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949**".

وتناولت الورشة، التي حضرها حوالي 25 ضابطا من الشرطة القطرية، التعريف بالقواعد الأساسية للقانون الدولي الإنساني، الأشخاص والأعيان المحمية، العلاقة بين القانون الدولي الإنساني والشريعة الإسلامية، والعلاقة بين القانون الدولي الإنساني وقانون حقوق الإنسان، وآليات تطبيق القانون الدولي الإنساني على الصعيدين الوطني والدولي.

تونس:

احتفالية بمرور 100 عام على رحيل دونان

بمناسبة مرور مائة عام على رحيل هنري دونان (1828–1910)، نظمت الجمعية الوطنية للهلال الأحمر التونسي وبعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في تونس معرضا للصور يجسد الفترة التي عاش خلالها مؤسس الصليب الأحمر في بلدان المغرب العربي.

وعلى هامش هذه الاحتفالية، التي شارك فيها دبلوماسيون وممثلون للمجتمع المدني وصحافيون، ألقى خبراء محاضرات تناولت جوانب من حياة وعمل هنري دونان في أوروبا والبلدان المغاربية.

يشار إلى أن دونان أقام في تونس بين عامي 1856و1857. وشهدت هذه الفترة من رحلته في المنطقة ميلاد كتابه «لمحة عن الإيالة التونسية» الذي صدر في العام 1858.

بيروت:

أطباء يتبادلون الخبرات في جراحات الحروب

نظمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في بيروت، للعام الرابع على التوالي، ورشة عمل حول جراحة الحرب، أقيمت من 1 إلى 3 تشرين الثاني/ أكتوبر في مدينة صور، جنوبي لبنان، وذلك لتقاسم خبراتها، مع الأطباء اللبنانيين، في مجال معالجة الجروح التي يسببها العنف المسلح. وشارك في الورشة، وهي السابعة من نوعها التي تنظمها بعثة اللجنة في لبنان، 20 طبيبًا عامًا وجراحًا من «الهيئة الصحية الإسلامية»، وتخللتها محاضرات لجراحين متمرسين من اللجنة الدولية، لديهما خبرة طويلة في جراحات الحروب، اكتسباها خلال مهماتهما العديدة في بلدان مختلفة.

وقال رئيس بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في لبنان السيد **جورج كومينوس** إن «**الهدف الرئيسي لهذه الورشة هو ضمان حق ضحايا الحروب وحالات العنف في الحصول على الرعاية الصحية المناسبة، وهو حق أساسي نص عليه القانون الدولي الإنساني**». وتطرقت ورشة العمل إلى واجبات وحقوق الطواقم الطبيّة خلال النزاعات المسلّحة، وواجب حماية واحترام عمل هذه الطواقم، ووسائل نقل الضحايا إلى المراكز الطبية، تطبيقًا للقانون الدولي الإنساني.

وأضاف **كومينوس**: «**تأمين الوصول إلى الرعاية الطبية هو حق كل شخص بحاجة لهذه الرعاية سواء كان جريحًا أو مريضًا، وفي أي حال، سواء كانت حالة حرب أو عنف داخلي أو سلم**»

ونظمت اللجنة الدولية، في الأعوام الماضية ورش عمل مشابهة في أنحاء عدة من العالم.

وأوضح الدكتور **حسان نصر الدين**، أحد جراحي اللجنة، أن هذه الورشة «**تعرض أساليب جراحية متقدمة لمعالجة عدة أنواع من الإصابات التي تنتج غالبًا عن النزاعات المسلحة والعنف المسلح**».

وتعمل اللجنة الدولية في مناطق النزاعات المسلحة منذ أكثر من 100 عام، وعالجت 35 ألفا من ضحايا الحروب خلال الأعوام الأربعين الماضية في جميع أنحاء العالم. واكتسبت اللجنة اعترافا دوليا بخبراتها في الجراحات والإصابات التي تسببها النزاعات المسلحة، وهي تعمل على تقاسم هذه المعرفة والخبرة مع الأوساط الطبية.

وقال **نصر الدين**: «**لهذه الأسباب تعتبر اللجنة رائدة في مجال جراحة الحروب، وهي تعمل على تطوير التقنيات المناسبة في هذا المجال**».

صنعاء:

ورشتا عمل للصحافيين والهلال الأحمر اليمني

نظمت بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في اليمن بالتعاون مع جمعية الهلال الأحمر اليمني ورشة عمل ليومين لأقسام الإعلام والنشر في الجمعية وفروعها في أيلول/سبتمبر الماضي في العاصمة صنعاء. وهدفت الورشة إلى صياغة استراتيجية للإعلام والنشر للجمعية للعام المقبل 2011.

وركزت الورشة، التي تعتبر الأولى من نوعها لأقسام الإعلام والنشر في الجمعية على الخروج برؤية موحدة لاستراتيجية العمل في تلك الأقسام من أجل خدمة العمل الإنساني وتعزيز الدور الإعلامي للجمعية، ونشر مبادئ الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر.

كما نظمت البعثة ورشة عمل شارك فيها 18 صحافيا وإعلاميا يمنيا على مدار يومي 26 و27 تشرين الأول / أكتوبر الماضي، وتناولت مواضيع عدة منها التغطية الإعلامية والقانون الدولي الإنساني، ودور اللجنة الدولية أثناء النزاعات المسلحة.

وقدم مدير المركز الإقليمي للإعلام في بعثة اللجنة الدولية في القاهرة هشام حسن، محاضرة لتعريف الصحافيين بمهارات كتابة الخبر استنادا إلى القانون الدولي الإنساني وحماية الصحافيين خلال النزاعات المسلحة. كما حاضر الصحفي المتخصص في القضايا الإنسانية جلال الشرعبي حول كتابة القصص الإنسانية.

وتحدث رئيس البعثة جان–نيكولا مارتي في حفل الختام عن أهمية الإعلام في دعم القضايا الإنسانية وتسليط الضوء على الجانب الإنساني في تغطيتهم الصحفية. وشهد الحفل توزيع الشهادات على المشاركين الذين عبروا عن تقديرهم للبعثة في تنظيم هذه الورشة التي شكلت فرصة للتعرف على أنشطة اللجنة الدولية عن قرب بحسب قولهم.

... و35 مدربة في برنامج دعم السجينات

بالتعاون مع جمعية الهلال الأحمر اليمني، نظمت بعثة اللجنة في اليمن دورة تدريبية خاصة بتأهيل مدربات السجينات خلال الفترة من 23 إلى 25 تشرين الأول/ أكتوبر الماضي. شاركت في الدورة 35 مدربة من عشر محافظات يمنية، بهدف مناقشة برنامج اللجنة الدولية الحالي للسجينات، وبحث فرص التواصل والتنسيق بين الأطراف المختلفة المهتمة بالمشكلات التي تواجه النساء في السجن. وقال رئيس البعثة جان–نيكولا مارتي «إن البرنامج الذي بدأ منذ عشر سنوات، بالتعاون مع جمعية الهلال الأحمر اليمني، يهدف إلى كسر عزلة السجينات وإعادة إدماجهن في المجتمع». وأقيم على هامش الدورة معرض للأعمال اليدوية والرسوم التشكيلية للسجينات.

القاهرة:

ورشة عمل للإعلاميين العرب

«النزاعات والأزمات الأخرى: التغير البيئي السريع وأثره على التغطية الإعلامية» هو عنوان ورشة العمل التي نظمها المركز الإعلامي الإقليمي في بعثة اللجنة الدولية في القاهرة للإعلاميين من دول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يومي 1 و 2 كانون الأول/ ديسمبر 2010.

شكلت الورشة ملتقى لحوالي 35 صحافيا من 13 دولة عربية لمناقشة قضايا تهم اللجنة الدولية كما تتعلق بجوهر ممارسة مهنة الصحافة لاسيما في أوقات الأزمات والنزاعات المسلحة. وقد ركزت الجلستان الأولى والثانية على التعريف بالقانون الدولي الإنساني، وبأهمية معرفة الصحافيين لأسسه. وخصصت الجلسة الثالثة لمناقشة آليات «حماية وسلامة الصحفيين»، بحسب القانون الدولي الإنساني، وما يمكن أن تقدمه اللجنة الدولية بهذا الخصوص لاسيما في أوقات النزاعات المسلحة.

وتناولت الجلسة الرابعة، «التحديات الجديدة» التي تواجه الإعلاميين من خلال نموذجي «الحرب الحديثة» و«العنف الحضري»، فيما تناولت الخامسة التوازن الواجب توافره بين التغطية الإعلامية والحفاظ على خصوصية الأفراد، وإشكالية «تصوير الحدث أم المشاركة فيه». واختُتمت ورشة العمل بحلقة نقاشية خاصة حول وسائل الإعلام التقليدية ووسائل الإعلام الجديدة ومدى التكامل أو التضارب بينهما.

... وأطروحة حول دور «اللجنة الدولية» في تطوير القانون الدولي الإنساني

«**دور اللجنة الدولية للصليب الأحمر في إنماء وتطوير قواعد القانون الدولي الإنساني**» هو عنوان رسالة الدكتوراه التي أعدها المستشار **شريف عتلم**، المنسق الإقليمي لقسم الخدمات الاستشارية في اللجنة الدولية في القاهرة، واستحق من خلالها الحصول على درجة الدكتوراه في الحقوق من جامعة القاهرة، بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف.

وتعد أطروحة **عتلم** من أوائل الدراسات المتخصصة، باللغة العربية، عن اللجنة الدولية، وبيان هويتها كمنظمة إنسانية محايدة، تعمل على حماية الضحايا في زمن النزاعات المسلحة. وتناولت الدراسة كيفية خروج اللجنة الدولية إلى النور بمبادرة من **هنري دونان**، في كتاب تذكار سولفرينو، والتطورات التي مرت بها منذ العام 1863 وحتى اليوم الذي أصبحت فيه أكبر منظمة إنسانية. وعرض الباحث الهيكل التنظيمي للجنة الدولية ومواردها، وكذلك علاقتها بالحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. وأكدت الدراسة أن المنهج الفريد الذي تتبعه اللجنة في عملها، وهو منهج السرية، يتيح لها التفاوض مع الأطراف المتنازعة بدون اللجوء إلى العلن، للحيلولة دون منع وصولها للضحايا، إن أصبحت خصما مع أي من أطراف النزاع.

ويتضمن الجزء الأخير من الأطروحة توثيقا لجهود اللجنة الدولية منذ عام 1986 من أجل صياغة منظومة التطبيق الوطني لأحكام القانون الدولي الإنساني، ثم بيان للجهود المشتركة بين اللجنة الدولية وجامعة الدول العربية والاتحاد البرلماني العربي ومختلف الدول العربية من أجل تطبيق هذا القانون.

ناقشت الرسالة لجنة مكونة من الدكتورة **عائشة راتب**، أستاذة القانون الدولي العام بكلية الحقوق في جامعة القاهرة (رئيسا)، والدكتور **أحمد محمد رفعت**، أستاذ القانون الدولي العام ورئيس جامعة بني سويف الأسبق، والدكتور **محمد سامح عمرو**، أستاذ القانون الدولي العام المساعد بكلية الحقوق في جامعة القاهرة.

بعثات اللجنة الدولية للصليب الأحمر في المنطقة

القاهرة: 33 شارع 106 حدائق المعادي، 11431 القاهرة، ج م ع
هاتف: 25281540/25281541 (202+) فاكس: 25281566 (202+)
البريد الإلكتروني: cai_lecaire@icrc.org

عمّان: دير غبار، حي الديار، شارع يوسف أبو شحوت صندوق بريد 9058 عمان 11191
هاتف: 5921472/4604300 (9626+) فاكس: 5921460 (9626+)
البريد الإلكتروني: amm_amman@icrc.org

بغداد: (بغداد) العلوية: ص.ب 3317
هاتف: 01922464 (79 964+) فاكس: 712266 763 (873+)
(عمّان): غرب أم أذينة، ش البصرة، بالقرب من فندق الفور سيزونز، بناية رقم 5 و 14 ص. ب. 9058 عمّان 11191 الأردن
(عمّان): هاتف: 65523994 (962+) فاكس: 65523954 (962+)
البريد الإلكتروني: iqs_ iraq@icrc.org

دمشق: أبو رمانة، ساحة الروضة، شارع مصر، بناء الجرد، الطابق الثالث صندوق بريد 3579
هاتف: 3310476/3339034 (96311+) فاكس: 3310441 (96311+)
البريد الإلكتروني: dam_damas@icrc.org

الأراضي الفلسطينية المحتلة: شارع النبي شعيب رقم (8) منطقة الشيخ جراح، القدس 91202، صندوق بريد 20253
هاتف: 5917900 (9722+) فاكس: 5917920 (9722+)
البريد الإلكتروني: jer_jerusalem@icrc.org

بيروت: بناية منصور، شارع السادات، الحمرا، صندوق بريد 7188–11
هاتف: 739297/739298/739299(9611+) فاكس: 740087(9611+)
البريد الإلكتروني: bey_beyrouth@icrc.org

الخرطوم: العمارات شارع رقم 33 – منزل رقم 16 – الامتداد الجديد
صندوق بريد 1831 – 11111 الخرطوم
هاتف: 65/476464 (249183) + (خمس خطوط) فاكس: 467709 (249183) +
البريد الإلكتروني: khartoum.kha@icrc.org

تونس: بعثة إقليمية، (تغطي أنشطتها: تونس – المغرب – ليبيا – موريتانيا – الصحراء الغربية)
المندوبية الإقليمية بتونس نهج بحيرة كنستنس، رواق البحيرة عمارة أ، ضفاف البحيرة تونس 1053
هاتف: 960179/960154/960196 (21671+) فاكس: 960156 (21671+)
البريد الإلكتروني: tun_tunis@icrc.org

الجزائر: 42 شارع المعز ابن باديس بوارسون سابقًا - الأبيار – الجزائر
صندوق بريد : 16606 الجزائر
هاتف : 03 43 92 21 / 73 40 92 21 (213+) فاكس: 18 43 92 21 (213+)
البريد الإلكتروني: alg_alger@icrc.org

صنعاء: شارع بغداد، رقم 19، منزل رقم 20 صندوق بريد: 2267 صنعاء
هاتف: 4/467873 / 44 21 38 (9671+) فاكس: 75 78 46 (9671+)
البريد الإلكتروني: san_sanaa@icrc.org

الكويت: البعثة الإقليمية لدول مجلس التعاون الخليجي (تغطي أنشطتها: الكويت، السعودية، الإمارات العربية المتحدة، قطر، البحرين، سلطنة عمان) الجابرية، قطعة 5، شارع رقم 3، منزل رقم 32 صندوق بريد: 28078 – الصفاة 13141
هاتف: 53220612 / 53220622 / 53220982 (965+) فاكس: 25324598 (965+)
البريد الإلكتروني: kow_koweitcity@icrc.org

بعثة الصومال: Denis Pritt Road، صندوق بريد: 73226 – 00200 نيروبي، كينيا
هاتف: 301 2719 (25420+) فاكس: 13731 27 (25420+)
البريد الإلكتروني: somalia@icrc.org

طهران: طهران، إلهيه، شارع شهيد شريفي منش، زنقة آذر رقم 4، قرب مستشفى آختر.
الرمز البريدي: 1964715353
هاتف: 4–21 22645821 (98+) فاكس: 21 22600534 (98+)
البريد الإلكتروني: Teh_teheran@icrc.org

موريتانيا: مقاطعة ن الشمال 182 مقسم ب صندوق بريد: 5110 نواكشوط
هاتف: 38 447 52 222+ فاكس: 97 446 52 222+
البريد الإلكتروني: nou_nouakchott@icrc.org

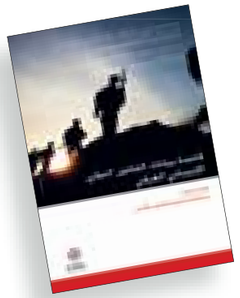

قاعدة بيانات القانون الدولي الإنساني العرفي

تهدف هذه المطوية إلى التعريف بقاعدة البيانات الجديدة المجانية الخاصة بالقانون الدولي الإنساني العرفي المتاحة إلكترونيا. وتبرز المطوية أهمية القانون الدولي الإنساني في تعزيز الحماية القانونية لضحايا النزاعات المسلحة، كما توضح أهمية قاعدة البيانات كمصدر للمهتمين بتفسيرات القانون الدولي الإنساني وتطبيقاته.

دليل غير المتخصصين لإدارة الرفات البشرية

صدر عن اللجنة الدولية دليل للقوات المسلحة والمنظمات الإنسانية حول «أفضل الممارسات التشغيلية المتعلقة بإدارة الرفات البشرية والمعلومات عن الموتى من جانب غير المتخصصين». ويحتوي هذا الإصدار على جميع التوصيات وأفضل الممارسات التشغيلية السليمة لرُفات الذين يلقون حتفهم لأسباب تتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بنزاع مسلح أو حالة عنف داخلي، لكي يُطبقها غير المتخصصين. ومن شأنه مساعدة القوات المسلحة على وضع إجراءات تشغيلية موحدة يُطبقها قادة هذه القوات، وأيضًا وضع وحدات تدريبية للأفراد، تدرج فيها القواعد القانونية والقوائم المرجعية. ويساعد هذا الإصدار أيضًا المنظمات الإنسانية على إدراج هذه التوصيات وأفضل الممارسات في سياستها المعتمدة، وفي التعليمات ووحدات التدريب والعمليات التي تنفذها.

في الاحتجاز: النهج الإنساني

يعيش ملايين الأشخاص في جميع أنحاء العالم خلف القضبان محرومين من حريتهم. وأيًا كانت أسباب الاحتجاز، فإن لهؤلاء المُحتجزين الحقُّ في معاملة إنسانية؛ لا يتعرَّضون فيها لسُوء المعاملة أو التعذيب.

تعمل اللجنة الدولية في أماكن الاحتجاز في جميع أنحاء العالم منذ عام 1915، وهي تزور اليوم قرابة خمسمائة ألف محتجز في نحو ثمانين بلدًا كلَّ عام. يُقدِّم هذا الفيلم نظرة خاصة عن كيفية عمل اللجنة الدولية، وعلاقتها مع المسئولين عن السجون. وهو يُوضِّح أهمية المُقابلات الخاصة التي تُجريها مع المحتجَزين.

دليل التنفيذ الوطني للقانون الدولي الإنساني

هذا الدليل هو أداة عملية لمساعدة صانعي القرار والمشرعين وغيرهم من المعنيين في التصديق على صكوك القانون الدولي الإنساني في جميع أنحاء العالم. وقد بني الدليل على خبرة 15 عاما في الخدمات الاستشارية التي تقدمها اللجنة الدولية. وهو يتضمن المبادئ التوجيهية لمساعدة الدول على تنفيذ القانون الدولي الإنساني، والوفاء بالتزاماتها بموجب هذا القانون، لا سيما تلك التي تتعلق بمعاقبة الانتهاكات الخطيرة لأحكامه.

بالستيات الجروح (كتيب وفيلم فيديو)

يستعرض قرص الفيديو الرقمي الآثار التي يخلفها رصاص البنادق والمسدسات وكذلك شظايا الأسلحة المتفجرة في الأنسجة البشرية. ويعرف مجال البحث هذا باسم «بالستيات الجروح» (Wound Ballistics).

وصُمم هذا الفيلم لأغراض تعليمية، وهو موجه إلى شريحة واسعة من المتخصصين في مجالات متنوعة. فالاختصاصيون الصحيون -مثلا- الذين يعالجون جرحى السلاح، سوف يستفيدون من فهم أفضل لما تسببه في الجسم عملية الإصابة بالجرح. أما رجال القانون فيحتاجون إلى الاستيعاب الجيد لبالستيات الجروح لنشر القواعد التي تحد من استخدام القوة وتحظر أنواعًا معينة من الرصاص. ويحتاج خبراء الطب الشرعي إلى فهم بالستيات الجروح عندما يقدمون أمام المحاكم الأدلة المتعلقة بسبب الوفاة.

العمل مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر: معا في قلب الأحداث

ماذا يعني العمل مع «اللجنة الدولية للصليب الأحمر» في الميدان؟ ما الذي ينتظرك عند وصولك إلى هناك؟ ما الذي يتعيَّن عليك فعله في الميدان وما الأمور المهمة من وجهة نظر اللجنة الدولية؟ يجيب هذا الفيلم عن هذه الأسئلة، وعن غيرها. كما يُطلعنا خمسة من المديرين رفيعي المستوى في اللجنة الدولية على انطباعاتهم، والخبرات التي اكتسبوها في الميدان، والأمور التي يرونها حاسمة بشأن اللجنة الدولية وما تضطلع به من أنشطة.

AL-INSANI . 50 . Autumn 2010

Of Unity and Diversity: Rejoicing in our Differences

Contents

• **Who Will Protect the Victims of Cyber Warfare?** By: **Zeinab Ghosn**
In an age where battles have crossed over into the virtual world, many questions are raised regarding the laws that can protect its victims.

Dossier

• **Secret Immigrants: Criminals or Victims?!**
Some young people risk everything, including their homelands, lives and families by throwing themselves into the sea in hopes of finding paradise on the opposite shore, which they may or may not reach. This Dossier covers this issue and its many aspects.

• **Secret Immigration: 4 Photos for Immigrants, their Homeland, Human Smugglers and the Land of Dreams** By: **Mehdi Mabrouk,** Tunisian professor.
This article attempts to provide a social analysis for the phenomenon of secret immigration.

• **The Law Student and the "Illegal Immigrant"** By: **Frederic Joli,** spokesperson, ICRC Paris
In this touching humanitarian story, we get to see how Anne, a French law student meets Adama, a depressed, sick, and unemployed immigrant who secretly entered her country, and she decides to help him get his legal rights.

• **From "Illegal Immigrant" to Novelist** By: **Mohamed Tarnish,** A Libyan writer and the Executive Director of the Human Rights Society of the Gaddafi Foundation
Following a failed secret immigration attempt to Italy in order to escape the tense situation in his country, Abu Bakr Hamid Kahal remains in Libya where he discovers his literary skills and talents and becomes an important author.

• **Libyan Red Crescent: Continuing Efforts to Alleviate the Sufferings of Immigrants** By: **Mohamed el-Banuni,** the Director of the International Relations Department, Libyan Red Crescent Society.

• **The Legal Rights of Secret Immigrants** By: **Dr. Osama Bedeir,** Advisor to "the Land Center for Human Rights", Cairo and **Samy Mahmoud**, Egyptian journalist.
Many secret immigrants are unaware that they have legal rights as stipulated in international human rights conventions and described in this article.

• **Thus Spoke Nour** By: **Mohamed Sultan,** Media and Publication officer, ICRC Cairo
In an attempt to find his wife and daughters, Nour is forced to endure many difficulties and to cross four countries until finally succeeding in his quest with the help of the ICRC's "Establishing of Family Links" program.

• **Pierre Gaillard Recalls his 20 Years of Humanitarian Work during the Algerian War an interview** By: **Mohammed bin Ahmed,** Advisor with the Regional Delegation, ICRC Tunis
Pierre Gaillard worked as an ICRC delegate in the Middle East and North Africa and witnessed the Algerian War of National Liberation from its inception in 1954.

• **Dr. Mohammed Saidan: Sufism in the Face of Occupation an interview** By: **Mawlay Sayed Said bin Tunis,** Communication and Information officer in the Tariqa Alawiya (Islamic religious order)
Mohammed Saidan fought in the Algerian War of National Liberation until his arrest in 1957. In this interview, 79 year old Saidan recalls his experiences during the war as well as the ICRC's visits to the prisoners of war.

• **The Culture of Peace: How to Make War "More Humane"?!** By: **Dr. Iqbal al-Gharbi,** Professor of religious Anthropology at the University of Zaytuna - Tunisia
The article discusses how the humanization of war and armed conflict is an issue of common interest to all countries, no matter which side they are on.

• **Haiti: Handicapped Children Learn to Enjoy Life Again** By: **Olga Mitchiva,** Media Delegate, ICRC Port-au-Prince.
The earthquake in January 2010 led to a large number of amputations in Haiti. So that the amputees can be independent, they have to attend rehabilitation sessions, and child amputees, in particular, have to have their prostheses changed every so often.

• **Humanity in War: Camera's on the front line** By: **James Nachtwey,** Photographer
A selection of photos from the book titled "Humanity in War: from the mid-19th century to the conflicts of today", which documents the humanitarian effects of successive wars as well as the shared history between the ICRC and the victims of these wars.

• **Dr. Bakary Sambe: African Islam as an Example of Spreading Tolerance an Interview** By: **Mame Ibrahima Tounkara**, Expert in legal affairs, ICRC Dakar
Dr. Bakary Sambe, a political science expert on Arab-African relations and Islamic movements discusses the introduction of Islam in Sub-Saharan Africa, and how its teachings were successfully harmonized with cultural traditions characteristic to this region.

• **Of Unity and Diversity: the Importance of Rejoicing in our Differences** By: **Yasser Al-Zayat**
The article argues that diversity within unity is possible, and that it may even have a positive impact on development. It also attempts to prove that diversity is not antithetical to the nation state, and that the latter is enriched by this diversity.

• **The Tuareg Women: Teaching the Desert Spirit** By: **Fatiha El-Chara'a,** Algerian journalist.
In the desert, the Tuareg people's heritage is inspired from their natural environment and rely on women to preserve it.

• **The Amazigh Revival in Morocco** By: **Jami Kalhassan,** Moroccan writer and journalist.
This article sheds light on the efforts being made by the Kingdom of Morocco to introduce Tamazight into school curricula and mass media as a step towards the revival of the culture of the Amazigh, the ancient inhabitants of North Africa.

• **"The Maghreb Books": a Mediterranean Literary Salon in Paris** By: **David-Pierre Marquet**, Communication Delegate, ICRC Cairo.
The Palais de la Porte Doré's (Palace of The Golden Door) new cultural center began hosting this salon since 2010 as a symbol of the cultural contributions of diasporic communities to France.

• **The "Khaldouniya" War Plans and the Reasons Behind Victory and Defeat** By: **Adel al-Ahmar,** Tunisian researcher and ALECSO employee.
Ibn Khaldun devoted part of his renowned 'Muqaddimah,' (Prolegomena) on the methods of waging war practiced by the various nations. This article is a critic of Ibn Khaldun view.

• **The Kilimanjaro Challenge: One Woman's Journey to the Summit in Support of the Fight against Breast Cancer** By: **Abeer Sulaiman,** Egyptian novelist and blogger.
Humanitarian work is not confined to organizations and institutions; individuals can also become involved in such work in order to provide services to humanity, and to bring awareness to the sufferings of others.

• **Without Retouch: Childhood** By: **Nagy Al-Shinnawy**, Egyptian Writer.

• **Poetry: Of Hope and Challenge** By: **Rabindranath Tagore**, Indian Poet

• **Around the world**

Editorial

The flow of immigrants: Where cultures meet

In an interactive world, where economic, political and social interests overlap, an unprecedented intermingling of people occurs. This may result in either conflict, or in exceptional cultural wealth. "Al-Insani" met with a number of women and men who made humanitarian work a life choice, and who put it at the forefront of their priorities.

In this issue we explore the habits and traditions of the peoples of North African countries. We will also focus on the stories of a number of immigrants who were forced to search for a better life as a result of armed conflict or harsh living conditions. We will also provide historical reading for certain humanitarian aspects, and relations between the Arab world and Europe.
In this issue, we will discover how these people cope with the difficulties they face, such as the Amazigh housewife, who in her strive to preserve the Berber culture teaches Tamazight language to the next generation. We will also see how the ICRC's "family links" program succeeded in reuniting an African refugee with his wife and daughters after years of separation.

You will also read the story of a young French woman who helped an "illegal immigrant" in Europe get his legal rights, and that of an Egyptian woman who climbed Mount Kilimanjaro to bring awareness to the fight against breast cancer. We interview an Algerian doctor who recalls the ICRC's visits to him while he was imprisoned during the Algerian War. We, furthermore, shed the light on the children of Haiti whose undernourished bodies will forever bear the devastating consequences of the catastrophic earthquake.

We invite you to follow us on this path of hope and courage as we cover humanitarian concerns and address the various issues related to the flow of immigrants in a world in which we all depend on each other and in which communication and understanding have become difficult, despite the many advances in technology.

This issue also includes an article that discusses the risks of developing cyberspace weapons – a possible indication of a drift towards inhumane behavior during conflict.

Al-Insani gives humanitarian workers the chance to discuss the importance of respecting the rights and responsibilities of each individual during times of conflict, as we continue down the path we have been following for years, thanks to your contributions and real life stories as well as the experiences and ideas we share.

No matter how complex the situation or how great the offense, there will never be any justification for discrimination against cultures, languages, or cultural traditions. Diversity is the route to enrichment of the human experience, and this only enforces the importance of mutual respect and the preservation of human dignity.

"Al-Insani"